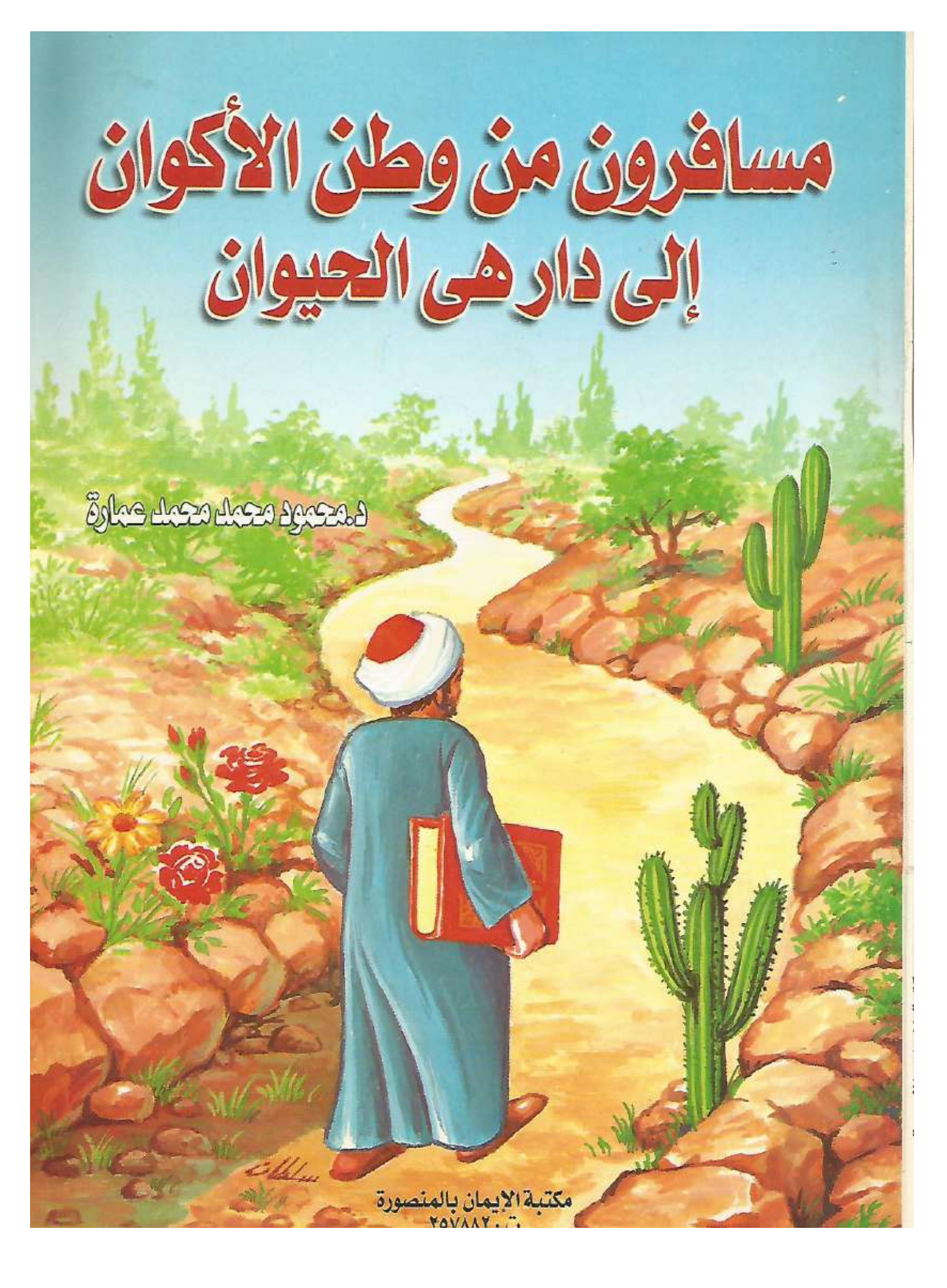

مسافرون من وطن الأكوان
إلى دار هى الحيوان
د.محمود محمد محمد عمارة
مكتبة الإيمان بالمنصورة

مسافرون من وطن الأكوان إلى دارهى الحيوان

د. محمود محمد محمد عمارة

الناشر
مكتبة الإيمان
المنصورة ٢٥٧٨٨٢

الفهـــرس

الموضـوع	الصفحة
تمهيد	٣
مسافرون من ظلمة الطبع إلى نور الشرع	٦
مقومات الشخصية المؤمنة	٨
الفائزون بجائزة السباق	١٠
ومن قبله كان أبو بكر	١١
يعيشـون الآخرة ومـا يزالون في الدنيا	١٣
معنى الزهد في الدنيا	١٣
كلنا مسافرون	١٦
خصائص السفر إلى الآخرة	١٧
علامات الطريق	١٨
عوائق على الطريق	١٩
وحشة التفرد	١٩
دلائل على الطريق	٢٣
عائدون إلى الله	٢٦
باحث عن الشفاء	٢٨
سلامة إجراءات التحقيق	٢٩
الله معك فهل أنت معه ؟؟	٣١
درس في الإنصاف	٣٣
درس في العدل	٣٥
موقف الصحابة	٣٧
من الاهتداء إلى الاقتداء	٣٨
اليائسون البائسون	٤٩
مغزى اليأس	٥١
فكرة السرور في منهج الإسلام	٥٩
أما بعد فكن سعيداً	٦١
موقف	٧٠
الحب في الله	٧٤
طبيعة هذا الحب	٧٤
رحلة إلى الماضي	٧٨
العلماء والأمراء معاً على الطريق	٨٠
من جوانب العظمة في شـخصية ابن المبارك	٨٣
من خداع النفس	٨٤
في دار العبيد	٨٦
تحرر السادة قبل تحرير العبيد	٨٨
سلامة إجراءات التحقيق	٩٣
برّ التلاميذ	٩٤
وفاء بوفاء	٩٦
القيمة العلمية والقيمة الأخلاقية	٩٧
المصلح الاجتماعي	٩٨
هدايا الحجاج	٩٩
الرحلة المباركة والحج السريع	١٠٣
فريضة الحج آيات وذكريات	١٠٣
البيت الحرام	١٠٣
من آداب الزيارة	١٠٤
لبيك اللهم لبيك	١٠٥
وقفة عرفات	١٠٦
من دروس عرفات	١٠٧
محاولة فاشلة لضرب الوحدة	١٠٨
شبهات المتمردين	١٠٩
والبقاء للأصلح	١٠٩
إبراهيم عليـه الصـلاة والسـلام الأسوة الحسنة	١٠٩

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
غريزة الأبوة	١١٠	يخربون بيوتهم بأيديهم	١٤٢
وظيفة المسلم	١١١	أضعف خلق الله وأذلهم	١٤٣
مستوى الطموح	١١٢	أولياء المؤمنين	١٤٣
العمل الصالح	١١٢	الجزاء الرادع	١٤٤
صورة من التعاون على البر	١١٤	مهاجرون إلى ربهم	١٤٦
ثقب فى البناء الأخلاقى	١١٤	أهمية الاستغفار	١٤٧
يوم النحر	١١٥	الطريق إلى مرضاة الله تعالى	١٤٨
نيل النعم	١١٥	محاسبة النفس	١٤٨
عموم النعمة	١١٦	الذنوب عدونا اللدود	١٤٨
نعمة الإبل	١١٧	منهج فى معاملة الخاطئين	١٥٠
حكمة فى خلق الإبل	١١٨	من هدى الرسول	١٥٠
دروس من عيد الأضحى	١١٩	جهود الدعاة	١٥١
فن إدارة الأزمات	١٢١	من آفات التسرع	١٥٣
الاستجابة لأمر الله	١٢٢	واجب الأمراء	١٥٤
الألم النبيل	١٢٢	قصة زواج ناجح	١٥٧
كالمحار	١٢٤	موقف المسلم	١٥٧
من سمات المتقين	١٢٧	الاختيار الصعب	١٥٨
الدنيا طريق إلى الآخرة	١٣٠	الاختيار الأصعب	١٥٩
أهل الدنيا وأهل الآخرة	١٣١	العظماء بين همومهم وهممهم	١٦٠
الخوف من الخالق لا من المخلوق	١٣٤	الثرى والثريا	١٦١
يحبون لقاء الله	١٣٥	بركة القرآن	١٦٢
من حكمة الصالحين	١٣٦	قضية الرزق	١٦٣
الحياة الطيبة	١٣٦	سنة التعويض	١٦٥
لماذا نكره الحياة؟	١٣٨	من دروس الموقف	١٦٥
معنى الرضا	١٣٨	آباء صدق	١٦٧
من سمات المنافقين	١٣٩	من آيات الله	١٦٧
واجب المسلم	١٤٠	من فقه ابن الجوزى	١٦٨
وهو خادعهم	١٤١	استدراك	١٦٨
من خصائص المنافقين	١٤١	الربيع الصامت	١٦٩

تمهيــد :

يقولون :

إن مصاحبة الأخيار . . تورث الخيــر كما وأن مصاحبة الأشرار . . تورث الشر . . تماماً كالريح :

إذا مرت على الــزهور . . حملت ريحــاً طيباً .وإذا مــرت على النتن . . حملت نتناً !

أرأيت إلى ماء المطر ينهمر عذباً فراتاً ؟

إن الصَّدَفة تتلقاه . . فتخرج جوهرا . .وتتلقفه الحية . . فيصير سما . .

وهذه الصفحات : صحبة للصالحين فى أقوالهم وأفعالهم . . ومن جالس الذاكرين . . انتبه من غفلته . . ومن خدم الصالحين ارتفع بخدمته . .

إنها مــحاولة لإبراز القــدوة الحسنة من خلال هذا النفــر الكريم من سلفنا الصالح . . والذين يضيئون لنا بسيرتهم زمنا زادت فيه حلاكة الليل :

لقد غــشى البصائر من المعــاصى ما غشــاها . وران على القلوب صدأ بما كسبت أيدى الناس . . فأطفأ نورها . .

ثم ها هى ذى شياطين الإنس والجن تلبس على العقول فأزاغتها عن سواء الصراط . .

وما بقى من الناس نقى السيرة . طاهر السريرة . . فهو على خطر عظيم :

فهــو فى متقلب الفتن . . ولا بد من أن نذكــره بهذه القُدْوة الخــيِّرة على طريق الإسلام . . لينقل خطاه على هديهم . .

إنها مواقف مشهودة وأقوال مأثورة . . نتملاها . . فلعلها أن تكون ركوبنا من ورائهم . . لنصل إلى مثل ما وصلوا :

جاشت النفس بالهموم ولكن

سكنت عندما وردنا المدينة

كيف لا تسكن النفوس ارتياحا

عند من أنزلت عليه السكينة؟

إنها العدة الواقية . والجنة العالية . والتجارة الرابحة . والسعادة السانحة .

والجلاء للشبهة . والضياء فى الغمة . والطمأنينة فى العاجلة . والمنجية فى الآجلة .

وإذ يتنافس المتنافسون اليوم فى كسب رضا أهل السلطان وأصحاب المال . . فإن متعة المسلم أن يتجاوز لعاعة الدنيا من وراء هذا التنافس المحموم . . ليحظى بصحبة هؤلاء الذين نتذوق فيهم متعة المبادئ . . والقيم . .

هذه المبادئ التى هى زادنا الحقيقى فى رحلتنا إلى الله تعالى . . وإن ظن بنا المترفون الظنون .

وعيّبنى الأعداء والعيب فيهمو — وليس بعار أن يقال: ضرير

إذا أبصر المرء المروءة والتقى — فإن عمى العينين ليس يضير

ويا لها من صحبة مباركة الروحات والغدوات . . ومن أينع ثمراتها تلك الهمة العالية المتأبية على السفاسف . . والتى تصون عفتها أن تدنسها المعاصى .

لعمرك ما أهويت كفى لريبة

ولا حملتنى نحو فاحشة رجلى

ولا قادنى سمعى ولا بصرى لها

ولا دلنى رأيى عليها ولا عقلى

ولست بما شئ مـا حـيـيـت لمنكر
من الأمـر لا يمشـى إلى مـثلـه مـثلى
ولا مـؤثرٍ نفـسى عـلى ذى قـرابة
وأوثر ضـيـفى - مـا أقـام - علـى أهلى
وأعلم أنـى لم تصـبنى مـصـيـبـة
من الدهر . . إلا قـد أصـابت فـتى مـثلى

إنها المروءة وتكاليفها :

ألا وإن الرجل ذا المروءة ليكون خـامل الذكـر . خافض المـنزلة . فتـأبى مروءته إلا أن يستعلى ويرتفع . كالشعلة من النار . التى يصونها صاحبها . . وتأبى إلا ارتفاعاً .

د . محمود محمد عمارة

بسم الله الرحمن الرحيم

مسافرون

من ظلمة الطبع إلى نور الشرع

يخطئ الذين يظنون أن الباطل يذهب بالضربة القاضية ! . . وبين عشية وضحاها يموت بالسكتة القلبية . .

وخطأ هذا الظن - كما يقول العلماء - راجع إلى :

أ- الجهل بسنن الله تعالى فى النصر والهزيمة .

ب- والغفلة عن سنة الله تعالى فى التغيير . والذى يتم عبر مراحل .

جـ- ثم هو فى النهاية قصور فى إدراك مسيرة الإسلام فى عهد النبوة وكيف كانت سنة التدرج قاعدة راسخة . . اجتث الله تعالى بها الباطل فصار هباء .

منهج التغيير :

(أ)

يرى العلماء أن تقديم الحق على الباطل . . وتقديم الأمر بالمعروف على النهى عن المنكر . . دليل على طريق الدعوة . . يبين كيف يبدأ الإعداد للنصر . . ببناء الحق فى النفوس أولا . .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ ٤٩] .

إن مجرد مجىء الحق . . من شأنه أن يرى بِكْ الباطل . . الذى لا يدرى عند مجىء الحق ماذا يقول؟ . . وماذا يفعل . . ؟

إنه يتجمد فى مكانه . . كالفأر المذعور . . أمام الهرّ يبدو له من بعيد . .

لكن الباطل مع هذا . . له وجود . . وإن بدا أشلّ اليدين . . معقود

للسان . ولن يضمحل ويفنى بمجرد وجود الحق . .

يقول تعالى : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء : ٨١] .

فلم تقل الآية الكريمة [. . فزهق الباطل] حتى يكون ذهابه لمجرد أننا على الحق . . بل لا بد من الدور الإنسانى : تضحية وفداء . . ليأتى من بعد ذلك نصر الله والفتح .

وذلك قوله تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء : ١٨] .

فالحق أولاً . . فإذا قوى فى قلوبنا . . استطاع أن يزاحم الباطل . . الذى يفر من الساحة ليتحرك الحق وحده فى رحابها .

(ب)

ويلاحظ العلماء أيضاً :

تقديم الأمر بالمعروف على النهى عن المنكر . . تنبيها إلى ضرورة التسلح بالطاعة أولا . . لتدرك الأمة عناصر القوة التى بها قوامها . .

ثم لتدرك ثانياً - بالنهى عن المنكر - مخاطر الطريق . . حتى تتلافاها . . ليبقى بناؤها الأخلاقى عصيا على شياطين الإنس والجن . ويضربون لذلك مثلاً بوصية لقمان لابنه :

﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [لقمان : ١٧] فبالصلاة يتكون ذلك الحارس الذى يشكل رقابة ذاتية تتابع وتراقب . . حماية للنفس من السقوط . . فإذا تم البناء النفسى كمالا . . جاء نصر الله والفتح . .

مقومات الشخصية

المـؤمنـة

لا يكفى إذن أن تكون على الحق . . وإنما إلى أى حد أنت مستعد للدفاع عنه ؟ وما هى العناصر اللازمة . . حتى تكون على مستوى القضية ؟

نقرأ فى ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ . وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾ [ص :٤٦ :٤٧] .

إن الرسـول ﷺ مـأمـور أن يذكـر من عـبـاد الله تعـالى إبراهيم . . وإسحاق . . ويعقوب . .

أن يستـحضرهم فى وعـيه . . ذاكراً جـهادهم المبرور . . تأسّياً بهم . . ولكن ما هى مواطن القوة فى حياتهم والتى أمر أن يترسم فيها خطاهم ؟ :

أولاً : إنهم أولو الأيدى . . أهل القوة البـانية . . والعزائم الماضـية . . وهبهم الله تعالى : القوة العملية . . والتى تصدر عنها طاعة الله عزّ وجلّ .

وثانياً : أعطاهم الله تعـالى البصـائر الكاشفة . . وهى قـوة العلم . . وثمرتها معرفة الله تعالى بصفات كماله وجماله .

ولقد تمت هاتان النعمتان كمالا . . على أساس عقيدة الإيمان بالآخرة التى هى حجر الزاوية فى بناء الإنسان .

﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ [ص:٤٦].

فأعمالهم . . وأقوالهم . . إنما يقصـدون بها جوار الله تعالى ورعايته فى الآخرة . . فلا يذكرون إلا الآخرة . . فأولئك تحروا رشدا .

لقد نقلوا خطاهم على مدارج الكمال . . صاعدين . . لأن ذكرى الدار . ذكر المستقر هناك . . فتنصب فى وعيهم . فلا تلهيهم تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكرها

وبينما مناعم الحياة على جانبى الطريق تناوش أهل الدنيا .. فتغريهم بما ينسيهم الآخرة .. فإن هؤلاء يمضون .. ولا يلتفتون .. كل ما سوى الآخرة فى حسهم : عبث وباطل ..

وكل من يعمل عملاً .. أو يقدم علماً .. لا يريد به الآخرة فهو : فهو عاجز عاطل .. أعمى .. لا بصيرة له !

مربط الفرس :

إن الإيمان بالآخرة نعمة عظمى يختص الله تعالى بها عباده الذين تحروها .. وعملوا لها ..

بقدر ما كان غياب الآخرة من قلوب الفجار سبباً فيما يحل بهم من دمار ..

إن الدنيا لو كانت ذهباً منقطعاً .. والآخرة خزفاً دائماً .. لكانت الآخرة خيراً وأولى ..

فكيف والدنيا هى الخزف المنقطع .. والآخرة هى الذهب الدائم ؟

وهكذا فهمها أسلافنا .. فتعبوا فى الدنيا .. ليستريحوا هناك .. لم يكن سرور الدنيا همهم .. لكن همهم الأكبر كان هو السرور الدائم فى دار هى الحيوان .

ولقد عبر الشاعر المؤمن عن هذا الهّم فى قوله :

مسرّة أحقاب تلقيت بعدها

مساءة يوم .. إنها شبه أنصاب

فكيف بأن تلقى مسرة ساعة

وراء تقضيها مساءة أحقاب ؟!

الفائزون
بجائزة السباق

كانت الدنيا فى حس سلفنا الصالح .. سباقـاً إلى الخيرات ومسارعة إلى جنات عدن ..

منطلقين من قاعدة :

أن الحصان الذى يتلفت يميناً أو يساراً .. تسبقه الخيول الأخرى إلى جائزة السباق .

ومن هؤلاء الأخيار : الإمام مالك رضى اللـه عنه :قيل له يوما : الأمير يسألك مسـألة سهلة . فقال الإمام : ليس فى العلم شىء سهل ! أمـا سمعت قوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ [المزمل - ٥]

لقد أخـذ الإمام سـمته عـبر الآخـرة بجد وصـرامة .. إيماناً منه بمشـقة الرحلة.. وقلة الزاد .. وحرصاً منه على أن يفوز بجائزة السباق ..

حتـى إن حيـاته تلك الجادة لم تتـرك له وقتـاً يضحك فـيه .. حـتى إن تلاميذه لاحظوا عليه - وعلى مدى نصف قرن من الزمان - أنه لم يضحك إلا مرة .. أو مرتين !!!

إن له مبادئ يعيش لـها .. لم تتحقق بعد .. وإن له غاية يسـتحث إليها المطايا لكن الشقة بعيدة

وإذا كان هناك ناس يجدُون مـا يعيشون به .. ثم لا يجدون ما يعـيشون له..

فإن مدرسة الإمام مالك .. إنما هى مـدرسة تعطى ولا تأخذ .. والمصيبة عندها ليست فى أن نموت .. وإنما المصيبة أن تموت فينا المبادئ ..

وللمبادئ تـكاليفها التى قـد لا يتسع العمر لإنجازهـا . . ومن ثم . . فقد ذهب وقت النوم . . ولا وقت للضحك الملهى . . فرارا من عـواقبه على حد قول القائل :

أحب أضـــحك لـلدنيـــا فـــيـــمنعنى
إن عـاقـبـــتنى على بعض ابتـــسـامـاتى !!

وإنهم ليمـضون على سواء الصراط . . تـكفيهم الجرعـة تبل صداهم . . واللقمة يقيمون بها صلبهم . . يرطبون ألسنتهم بهذا النشيد :

لام تـغـــــــــــر بـالأمــل الـطـويـل
وليـس إلى الإقـــامـــة من ســـبـــيل
فـــدع عـنك الـتـــعلـل بالأمـــــانى
فـــمـــا بعـــد المشـيـب ســوى الرحــيل
تـأمـل أن تدوم عـلـى الـلـيــــــالـى
وكـم أفـنـين قـــــــبـلـك من خـلـيـل
ومـــــــا زالـت بـنـات الـدهر تُـفـنـى
بنـى الأيام . . جـــيـــلاً بعـــد جـــيل

ومن قبله
كان أبو بكر

مرّ أبو بكر رضى الله عنه على طائر وقع على شجرة فقال : طوبى لك يا طائر : تطير . . فتقع على الشجر . . وتأكل الثمر . وليس عليك حساب ولا عقاب . يا لـيتنى كنت مثلك . والله لوددت أنى شجـرة . . إلى جانب طريق . . فمر علىّ بعـير . . فأخذنى . . فـلاكنى ، فأكلنى . . ثم ازدردنى . . ثم

أخرجتى بعرا . . ولم آكن بشراً !!

وهكذا يفكر أبو بكر . . ذلك الذى لـو وزن إيمانه بإيمان الأمـة لرجح . والذى قال فيه عمر :والله . . لليلة واحدة فى حياة أبى بكر فى الغار . . خير من آل الخطاب جميعاً !!

وعندما مدح رجل علياً أمام ابنه الحسن قال له : اسكت ! أتعرف من هو ﴿ ثانى اثنين إذ هما فى الغار ﴾؟!

هذا الذى وفد عليه ناس من اليمن . . فقرأ عليهم القرآن . .

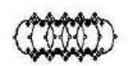
فبكوا . . فقال لهم أبو بكر :

هكذا كنا . . حتى قست القلوب

طوبى لمن مات فى نأنأة الإسلام !!

لقد كـان أبو بكر رضى الله عنه يعلم من سنتـه ﷺ قوله :« **عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله . وعين باتت تحرس فى سبيل الله** » [رواه الترمذى وحسنه].

ومع ذلك : فلم يكن يأمن مكر الله ولو كانت إحدى قدميه فى الجنة.



يعيشون الآخرة
وما يزالون فى الدنيا

كان ذكر الآخرة محفوراً فى وجدانهم .. حاضراً .. ودائماً .. فى بؤرة الشعور .. ومن ثم يئس الشيطان أن يشوش عليهم ..

قال حبيب بن محمد لمالك بن دينار - رحمهم الله تعالى :لو خيرْتَ فى الصناعات .. ما كنت تختار ؟. قال : أختار أن أكون حدادا ؛ فأرى لفح النار فأتقيها .

فقال حبيب : أما أنا : فلو خيرتُ كنت أختار أن أكون حفارا للقبور !!

وهكذا تملأ الآخرة وعيهم . فحددت فى الحياة مسير أفكارهم ورغباتهم ..

ولله مالك بن دينار .. فلطالما أرّقه اسمه .. وكأنما كان يذكّره نصفه - نصف اسمه - بالنار!! .. فلم يكن يقر له قرار !

بكى عمر بن عبد العزيز فى جوف الليل فلما سألوه قال :ذكرت منصرف الناس بعد الحساب : فريق فى الجنة وفريق فى السعير ولا أدرى أين أنا ؟!

ورأى ابن مسعود حدادا: فلما رأى الحديد المنصهر بكى . لأنه ذكر جهنم .

وكان سفيان الثورى يذكر أهوال الآخرة فيظل أياماً مشدوها لا يحسن التدريس !!

معنى الزهد فى الدنيا

ولكن زهدهم فى الدنيا لم يكن انقطاعا عنها .. وإنما يأخذ الزهد معناه الإيجابى .. والذى لخصه علماؤنا فيما يلى :

التخفيف من حدة التعلق بها على النحو الذى ينسى المسلم هدفه الحقيقى من حياته ثم كسر الرغبة فى المناصب ذات البريق الخادع .. واللذائذ المباحة

بضرورة الاعتدال فى تناولها. ذلك بأن التعلق بالدنيا له آثاره المرة :

١- يصد عن تقبل الحق .

٢- ويزين الحرام .

٣- ويحرض على سفك الدماء لتحقيق الملذات فيشقى الإنسان .

وإذن فكل تقليل من شأن الدنيا يعنى : العصمة من الوقوع فى قبضتها . . والتحـذير من إضاعـة الدين بدنيا هذا شـأنها . . وناهيك بمن يضـيع دينه . . بدنيا غيره : يتمتع غيره بالحرام . . ويدفع هو الثمن ومن دينه !!

من فقه الدعاة :

وعلى هذا الأساس انطلق الدعاة الحكماء . . الذين لا ينتزعون الناس من الدنيا . . ولكنهم من خلالها يقودون الناس إلى الآخرة . .

ذلك بأن العارف بالله لا يأمر الناس بترك الدنيا . . لأنهم لا يقدرون على تركها . ولكن يأمرهم بترك الذنوب . مع إقامتهم على دنياهم . . فترك الدنيا فضيلة . . وترك الذنوب فـريضة وكيف يؤمر بالفضـيلة من لم يقم بالفريضة؟ فإذا صعب عليهم ترك الذنوب . . فليجتهدوا فى أن يحبّبوهم فى ذكر نعم الله تعالى وآلائه وصفات جلاله وكماله .

فـالقلوب مفطورة على مـحـبتـه . . فإذا تعلقت بـحبـه هان عليهـا ترك الذنوب. أو الإقلال منها، وعدم الإصرار عليها .

قال يحـيى بن معـاذ : طلب العالم لـلدنيا خـير من ترك الجاهـل لها : فالعارف بالله يدعو الناس إلى الله من دنياهم . . فتسهل عليهم الإجابة . .

والزاهد يدعوهم إلى الله بترك الدنيا فتشق عليهم الإجابة؛ لأن الفطام عن الثدى الذى تعلق به الرضيع شديد . . ولكن تخـير من المرضعات أزكاهن . . فإن للّبن تأثيـراً فى طبيـعة الرضيع ورضـاعة المرأة الحمـقاء يعـود بالحمق إلى

الولد. وأفضل الرضاع ما كان عن مجاعة . . فاصبر على الفطام . . وإلا فما تيسر . . فإن من التخمة ما قتل . ويعنى ذلك :

أن المسلم لايدير ظهره للدنيا . . ليستأثر بها غيره . . ذلك بأن امتزاج العنصرين كوّن ملحاً . . ولابد لهذين من العنصرين من إكسير هو : التقوى . . والتى تجعل لهما قيمة . .

إننا جميعاً نطلب ما يسعدنا . . وليست المشكلة أن تصل إلى السعادة . . ولكن المشكلة هى : أنك تريد أن تكون أسعد من غيرك . بينما الدنيا أكبر من آمالك وأطماعك . . وقوتك أضعف من قوة المجتمع . . من أجل ذلك تتمزق . . وتضيع سعادتك المتاحة لك . . فى خضم هذا الاندفاع الأنانى!!

وفرارا من هذا المصير كان سلفنا الصالح يتناصحون . . فى محاولة للفرار من فتنة الدنيا التى يجب أن تكون فى جيوبهم لا فى قلوبهم : قال علىّ لعمار- رضى الله عنهما :

لا تحزن على الدنيا . فإنها ستة أشياء : مأكول . ومشروب . وملبوس . ومشموم . ومركوب . ومنكوح :

فأحسن طعامها : العسل . . وهو بزقة ذبابة ! وأكثر شرابها الماء : ويستوى فيه الإنسان . . والحيوان . وأفضل ملبوسها : الديباج . . وهو نسج دودة . وأفضل شحومها : المسك . . وهو دم فأرة ! وأفضل مركوبها : الفرس . . وعليه تقتل الرجال . وأما المنكوح : فمبال . . فى مبال .

وامتداداً لهذا الفهم العميق لمناعم الدنيا قال المحدثون : والبنسلين : من العفن . . وأجمل الألوان والروائح . . من القطران . والصوديوم بمفرده . . مؤذ . . والكلور بمفرده . . مؤذ . . ومن مجموعهما يكون الملح . . وهو المفيد !

والمطلوب أن تخوض تجربة الحياة بلباس هو التقوى . . تتقى به فتنة الدنيا . .

وإذا كانت للطيور ريش.. وللحـيوان شعر ووبر..وللأشجـار أوراقها.. فإن أجمل لباس هو : التقوى ..

قال سعيد بن جبير : ما رأيت للإنسان لباساً أشرف من العقل :

إن انكسر صاحبه .. صححه.. وإن وقع .. أقامه . وإن ذل .. أعزه. وإن سقط استنقذه .. وإن افتقر .. أغناه . وأول شيء يحتاج إليه البليغ هو: العلم الممتزج بالعقل .. وفوق ذلـك .. وقبل ذلك .. هو محتاج إلى توثيق الصلة بربه عن طريق عبادته .. وتقواه ..

والتى بهـا يعيش فى الدنيـا .. يملكها ولا تملكه .. وعلـى هذا الأساس كان المؤمن دقيق الإحساس .. يجاهد نفسه .. فارا بعبادته إلى ربه .. لتكون له العبادة سماء تقيه ألوان البلاء .. وإلا فإن تقصيره فيها .. واستسلامه للدنيا كاشف هذا الغطاء :

ماتت أخت لِبِشْرِ الحافى .. فبكاهـا بكاء مُرًّا .. وعاتبه رفاقه على ذلك فقـال : إن العبد إذا قـصر فى عـبادة ربه سلبه أنيـسته وقـد كانت أنيـستى . فأخشى أن أكون قد قصرت فى عبادة ربى !؟.

وهذا يعنى أن نفس المتقـى قد تغفو يومـاً .. ولكن سرعان مـا يفيق فى بعض مراحل الطريق .. ليجدد بالتذكار ما أبلت الأيام ..

وكان من وصاتهـم : إذا أحسست قسوة فى قلبـك .. فهذا هو الدواء : جالـس الذاكرين . واصـحب الزاهدين . وأقلل مطعمك . وتجنـب مرادك . وروّض نفسك على المكاره !

كلنا مسافرون :

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ ﴾ [الانشقاق :٦] .

وفى حديث ابن عمر رضى الله عنهما : « **كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل** » .

قالوا : « وعـابر السبـيل هو : المارّ على الطريق طالباً وطنه فـى الدنيا : كعـبد أرسله سيده فى حـاجة . . فى غيـر بلده . فشأنه : أن يبادر بفـعل ما أرسل فيه . ثم يعود إلى وطنه . ولا يتعلق بشىء مما هو فيه » .

وقالوا : المراد : أن ينزل المؤمن نفسه فى الدنيا منزل الغريب : فلا يتعلق قلبه بشىء من بلد الغربة . بل قلبه معلق بوطنه الذى يرجع إليه . ويجعل إقامته فى الدنيا . ليقضى حاجته وجهازه للرجوع إلى وطنه . . وهذا شأن الغريب . .

أو يكون كالمسافـر : لا يستقر فى مكان بعيـنه . . بل هو دائم السير إلى بلد الإقامة » .

يقول ابن القيم : «والمريد هو الذى خرج من وطن طبعه ونفسه . . وأخذ فى السفر إلى الله تعالى . والدار الآخرة » .

خصائص السفر إلى الآخرة

يقول علماؤنا فى التفريق بين سفر الدنيا . . وسفر الآخرة :

إن سفر الآخرة :

١- مفروض عليك . . فلا خيار لك فيه .

٢- ليس له مسـافة محددة ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان : ٣٤].

٣- سير نحو الخلود .

٤- إنه سير متواصل . . لا توقف فيه .

شروط هذا السفر

قالوا : مـن شروطه : الوضوح : وضـوح الهدف . . حـتى تنكشف له منعرجات الطريق . . وهكذا المسلم الذى يجعل الله تعالى له نورا يمشى به . . **﴿ أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها﴾** [الأنعام : ١٢٢] .

ويقول ﷺ :« **تركتكم على المحجة البيضاء : ليلها كنهارها . لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك** » .

يقول بعض الباحثين :

أ- إنها فى ذاتها نيّرة . . بيضاء .

ب- فإن ليلها يساوى نهارها فى الانكشاف والوضوح .

جـ- وهذا دليل على استحسان السفر نهارا .

د- والنور المنبعث المرسل من المحجة : ليس أشعة تزعج العين لكنه ضياء . . هادئ . . كاشف . .

هـ- ثم هو يعبر عنها تارة : بالسبيل . . وهو الطريق السهل المههود . . وبالمحجة . . وهى : جادة الطريق ووسطه . . وبالمستقيم . . وهو أقصر مسافة بين نقطتين . . فهو يوفر الطاقة والجهد . . مع سلامة الوصول .

علامات الطريق

آيات معنوية . . هى القرآن . وآيات كونية . . حولنا . .

والآية مشتقة من «التأنى» وهو التثبت . والإقامة علي الشيء .

وقد أنعم الله تعالى علينا بما يعين على ذلك . . وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك :٢٣] .

والفؤاد هو : القلب : لتفؤده وتوقده . وهو - كما جاء فى لسان العرب مذكر لا غير -

ومـا أحوج المسافر إلى التوقد . . واليقظة . . والانتباه . . بل حدة الانتباه . . حذر مخاطر الطريق . .

عوائق على الطريق

وعلى الطريق.. عوائق تمنع من الوصول .. ومن هذه الموانع : التردد.. الذى يصيب الإرادة بالهزال فتفقد عنصر التصميم . وتعجز عن اتخاذ القرار..

وقد أشار ابن القيم - رحمه الله - إلى المشكلة وحلها فقال :

إذ لما كان الإخبات أول مقام يتخلص فيه السالك من التردد . الذى هو نوع غفلة وإعراض .

والسالك مسافر إلى ربه .. سائر إليه على مدى أنفاسه . لا ينتهى مسيره إليه ما دام نفسه يصحبه .. كان حصول الإخبات له كالماء العذب . الذى يرده المسافر علي ظَمَىء وحاجة فى أول مناهله . فيرويه مورده . ويزيل عنه خواطر تردده فى إتمام سفره . أو رجوعه إلى وطنه لمشقة السفر .

فإذا ورد ذلك الماء .. زال عنه التردد . وخاطر الرجوع.

وحشة التفرد

والإخبات يجعل المسلم ذا عزيمة قوية .. بحيث لا يوحش قلبه عارض. ولا يقطع عليه الطريق فتنة .

والعارض هو الشىء المخالف . الذى يعترضك فى طريقك .

أى : يكون لك فى عرض الطريق فيمنعك من مواصلة سيرك .

وأقوى هذه العوارض التى تعترض طريق المسلم :

عارض وحشة التفرد :

أى يشعر المسلم بأنه وحده فى الطريق .. فيستوحش الطريق . ويطول عليه .فيقطع عليه هذا الفكر طريقه . ويجعله يعود من حيث جاء .

والإخبات يجعله ذا عزيمة قوية فلا يؤثر عليه عارض الوحشة والتفرد . حيث يشعر بأنه ليس وحده فى الطريق . بل الملائكة من حوله على نفس

الدرب القويم الذى يسلكه . فلذلـك : لا يلتفت المسلم إلى تلك العوارض . كما قيل :انفرادك فى طريق طلبك . دليل على صدق الطلب.

وقيل أيضاً :

{ لا تستوحش فى طريقك من قلة السالكين . ولا تغتر بكثرة الهالكين }.

{ أما الفـتنة التى تقطع عليه الطريق فـهى الواردات التى ترد على القلوب تمنعها من مطالعة الحق وقصده ، كحب الدنيا والتعلق بها ، وعدم الإخلاص، وتلوث القلب بالحسد والحقـد . . إلخ . فإذا تمكن المسلم من منزل «الإخبات» وصحة الإرادة والطلب لم يطمع فيه عارض الفتنة ، وهذه العزائم لا تصح إلا لمن أشرقت على قلبه أنوار آثار الأسماء والصفات وتجلب عليه معانيها }.

الخامـس : الإخبات يـربى المسلم على الخروج من حظ النفـس ، وعدم الالتفات إلى مـدح الناس وذمهم وذلك أنه متى استقرت قـدم العبد فى منزلة الإخبات وتمكن فـيها : ارتقت همته ، وعلت نفـسه عن خطفات المدح والذم فلا يـفرح بمدح الناس ، ولا يحـزن لذمهم ، هذا وصف من خـرج من حظ نفسه ، وصار قلبه مطرحا لأشعـة أنوار الأسماء والصفات ، وذاق قلبه حلاوة الإيمان واليقين .

إن الوقوف عند مـدح الناس وذمهم ، علامـة انقطاع القلب ، وخلوه من الله ، وأنه لم تباشـره روح محبـته ومعـرفته ، ولم يذق حـلاوة التعلق به ، والطمأنينة إليه. ولا يذوق العبد حلاوة الإيمان ، وطعم الصدق واليقين ، حتى تخرج الجاهلية كلها من قلبه .

يقـول ابن القيم - رحـمه الله تعـالى - : والله لو تحـقق الناس فى هذا الزمان من قلب رجل لـرموه عن قوس واحـدة ، وقالوا : هذا مبـتدع ، ومن دعاة البدع فإلى الله المشتكى ، وهو المسؤول الصـبر والثبات فلابد من لقائه ،

قال تعالى : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴾ [طه : ٦١] . وقال تعالى : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢٧] .

السادس : الإخبات يربى المسلم على عدم الرضا عن النفس والمداومة على لومها وتأنيبها .

والمراد بالنفس هنا : ما كان معلوماً من أوصاف العبد مذموماً من أخلاقه وأفعاله ، سواء كان ذلك كسبياً ، أو خلقياً ، فالمسلم شديد اللائمة لهذه النفس ، قال تعالى : ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة : ٢] .

قال سعيد بن جبير وعكرمة : تلوم على الخير والشر ، ولا تصبر على السراء ، ولا الضراء ، وقال مجاهد : تندم على ما فات وتقول : لو فعلت . ولو لم أفعل .

وقال الفراء: ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وهى تلوم نفسها: إن كانت عملت خيرا قالت: هلا زدت ؟؛ وإن عملت شراً قالت: ليتنى لم أفعل.

وقال الحسن : هى النفس المؤمنة ، إن المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلمة كذا ؟ ما أردت بأكلة كذا ؟ ما أردت بكذا ؟ وإن الفاجر يمضى قدما ولا يحاسب نفسه ولا يعاتبها .

وقال مقاتل : هى النفس الكافرة تلوم نفسها فى الآخرة على ما فرطت فى أمر الله فى الدنيا .

والقصد : أن من بذل نفسه لله بصدق كره بقاءه مع النفس ، أى أنه يعيش بلا نفس ، لأنه يريد أن يتقبلها من بذلت له ، ولأنه قد قربها له قرباناً، ومن قرب قربانا فتقبل منه ليس كمن رد عليه قربانه ، فبقاء نفسه معه دليل علي أنه لم يتقبل قربانه .

فالنفس جبل عظيم شاق فى طريق السير إلى الله عزَّ وجلَّ ، وكل سائر

لا طريق له إلا على ذلك الجبل ، فلابد أن ينتهى إليـه ، ولكن منهم من هو شاق عليه ، ومنهم من هو سهل عليه ، وإنه ليسير على من يسره الله عليه .

وفى ذلك الجبل أودية وعقبات ، وشوك ولصـوص يقطعون الطريق على السـائرين ، ولاسـيمـا أهل الليل المـدلجين فإذا لم يـكن معـهم عـدد الإيمان ومصابيح اليقين تتقد بزيت الإخبات ، وإلا تعلقت بهم تلك الموانع ، وتشبثت بهم تلك القواطع ، وحالت بينهم وبين السير .

فإن أكثر السائريـن فيه رجعوا على أعقابهم لما عجزوا عـن قطعه واقتحام عقـباته والـشيطان على قلة ذلك الجـبل - أى على قمـته - يحـذر الناس من صعوده وارتفاعه ، ويخوفهم منه . فيتـفق مشقة الصعود وقعود الشيطان على قلته وضعف عزيمة السائر ونيته فيتولد من ذلك الانقطاع والرجوع والمعصوم من عصمه الله تعـالى ، وكلما رقى السائر فى ذلك الجبل اشتـد به صياح القاطع وتحذيره وتخـويفه ، فإذا قطعـه وبلغ قلته انقلبت تلك المخـاوف كلهن أمانا ، وحينئذ يـسهل السير ، وتزول عنه عـوارض الطريق ، وشقة عقـباتها ، ويرى طريقاً واسعاً آمناً يفضى به إلى المنازل والمناهل وعليـه الأعلام ، وفيه الإقامات قد أعدت لركب الرحمن .

فبين العـبد وبين السعادة والفـلاح : قوة عزيمة ، وصبـر ساعة ، وشجـاعة نفس ، وثبات قلب ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ ﴾ [الانشقاق : ٦]

أنت أيها الإنسان : إنك كادح .. مـاض على طريق المعاناة .. فى سفر إلى ربك سبحانه وتعالى ..

إن أوضاع الكون سوف تتـغير .. ويحدث الانقـلاب الأكبر .. وكل من السماء بمن فيها .. والأرض بما عليهـا .. ومن عليها كلاهما سيطيع .. وبلا تردد .

وأنت أيهـا الإنسان : بحكم إنسانيتك . . وتحـملك الأمانة . . وضعفك فى هذا الكون . .

وأنت بعد هذا الكدح ملاق ربك . . ربك الذى تعلم من نعـمه عليك ما لا يحصى . .

أين دورك ؟ إلى أين تسـير ؟ إن الكدح قـدر الجـميع . . لكن النهـايات مختلفة . . فلتكدح بما يرضى ربك تعالى . .

تكلف . . حاول . . وخذ أهلك وولدك بمنهج ربك لتكون جديراً بقول القائل:

صـــبــــغنـا علـى ذاك أبـــناءنـــا

فـــأكـــرم بصـبـغـتنـا فى الصِّـبغ

دلائل على الطريق

والآية الكريمة لا تقـول :كـادح إلى الجـبار أو المنـتقم . . مـثـلا. لكنك كادح. . إلى ربك . . ومايشى به ذلك من إيناس وود .

وإذ يقول المتجاهلون : جئت لا أعلم من أين . . ؟

وإذا يصير أحـدهم بذلك مسافراً زاده الخيال . . أو الخـبال . . فإن المسلم مستحضر نهاية سفر . . عامل لها . .

رووا أن عالماً عاملاً لوحظ أنه يتحسر وهو يُحتضر . . فقيل له : ما بك . . ؟

قال : ما ظنكم بمن يقطع سفراً طويلاً . بلا زاد . ويسكن قبراً موحشاً . . بلا مؤنس . . ويقدم على حكم عدل . بلا حـجة؟ . . ثم لا يدرى : هل غفر ذنبه؟ . . وهل قبلت طاعته ؟!! أما غيره من المستهترين فإن الآية تصف نهايته قائلة :

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ . فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً . وَيَصْلَىٰ سَعِيراً﴾ [الانشقاق : ١٠-١٢].

إنه لا يدعو ثبوراً واحداً .. بل يدعو ثبوراً كثيراً ..

ذلك بأنه ﴿كان فى أهله مسروراً﴾ وقد أضاع سرورُه فى الدنيا .. سروره فى الآخرة !!

ذلك بأنه ظن ألا يحور .. ظن أنه لن يرجع إلى ربه .. فكانت النهاية على غير ما يشتهى . كانت أمنيته أن يموت ..

وياله من عذاب أن يكون الموت أمنية غالية

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً

وحسب المنايا أن يكن أمانيا !

المسئولية الفردية :

إنها المسؤولية الفردية التى ينبغى أن تظل حاضرة فى وعينا .. إنك تقول فى إقرارك بالتوحيد .. أشهد .. ولا تقول نشهد .. إن الناس لو أطاعوا جميعاً .. ثم عصيت .. لم تنفعك طاعتهم .. ولو عصوا جميعاً .. وأطعت .. ما سرت إليك معصيتهم ولن تضرك .. والعاقل من أعد لكل مسألة جواباً ..

ابن عمر ووالده :

قال ابن عمر - رضى الله عنهما : لما حضرت الوفاة عمر . غشى عليه . فأخذت رأسه [1]. فوضعته فى حجرى فقال : ضع رأسى بالأرض . لعل الله يرحمنى .

فمسح يديه بالتراب وقال :ويل لعمر لو لم يُغفر له .

فقلت: وهل فخذى والأرض إلا سواء يا أبتاه ؟

فقال: ضع رأسى بالأرض .. لا أم لك ! :فإذا قضيت . فأسرعوا بى .

(١) العرب لا تؤنث الرأس .

وإنما هو خير تقدمونى إليه. أو شر تضعونه عن رقابكم ثم بكى. فقيل له : ما يبكيك؟ قال: خبر السماء: لا أدرى: إلى جنة ينطلق بى . أو إلى نار.

يفعل هذا وهو الذى قال عنه ابن عباس- رضى الله عنهما : دعانى عمر فإذا حصير بين يديه . عليه الذهب المنثور نثر الحناء فقال : هلم فاقسمه بين قومك . فالله أعلم : حَبَس هذا عن نبيه ﷺ . وعن أبى بكر . وأعطانيه: الخير أراد بك . أم الشر ؟

قال ابن عباس : فأكببت أقسم . . فسمعت بكاء . فإذا هو عمر يبكى ويقول فى بكائه : كلا والذى بعثه بالحق : ما حَبَس هذا عن نبيه . وعن أبى بكر أرادَ الشر بهما . وأعطاه عمر إرادة الخير له !!

إنه عمر الذى دعى إلى وليمة . . فلما جلس . . انتفض كالأسد . وقام قائلاً : أخشى أن أكون ممن قال تعالى فيهم : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف : ٢٠].

ولم يكن يجمع بين طعامين . . فمع أنه كان إذا مشى أسرع . . وإذا قال أسمع . . وإذا ضرب أوجع . . إلا أنه كان زاهداً . . وصار بهذا الزهد طاقة من النور كما قيل بحق : وقد كشف بهذا النور ما وراء الأستار . . فلو قال : أظن كذا . . تحقق . .

وكشف به عدة محاولات لاغتيال الرسول ﷺ . . وقال للمجرم : أخرج سلاحك !!

ولقد كان له أولاد غير عبد الله . . ولكن . . إذا أطلق «ابن عمر» انصرفت الأذهان إلى عبد الله . . لأنه كان على طريقه حتى مات .

لقد وعد ابن عمر رضي الله عنه شاباً بالزواج من ابنته . . فلما حضرته الوفاة استدعاه . وزوّجه منها . ثم قال : حتى لا أموت على شعبة من النفاق !

عائدون إلى الله

عن عبد الرحــمن بن ثعلبة الأنصارى . عن أبيه :أن عمــرو بن سمُرة بن حبـيب . جاء إلى رسول الله ﷺ . فـقال : يا رســول الله : إنى سرقت جملاً لبنى فلان . . فطهرنى .

فأرسل إليهم النبى ﷺ فقالوا : إنا افتقدنا جملاً لنا .

فأتى به إلى النبى ﷺ . فقطعت يده .

قال ثعلبة :أنا أنظر إليه حين وقـعت يده . وهو يقول : «الحمد لله الذى طهرنى منك . . أردت أن تدخلى جسدى النار »[1].

تمهيد :

لا يستــمر الطائر فى جو الـسماء مـرفرفاً . . لابد أن يهـبط يوماً . . ثم يعاود الطيران . .

وهكذا الإنسان : قد يكبـو به الجواد يوماً . . ولكن سرعـان ما يفيق . . عائداً إلى ربه تعالى يطرق باب الرجاء . . والآية الكريمة فى وعيه :

﴿ وَإِذَا جَـاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَـقُلْ سَلامٌ عَـلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُـمْ عَلَى نَفْسِـهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٥٤] .

وهذا رجل . . أذنب ذنباً . . ثم صحا مــن سكرة الذنب نادماً . . مدركاً أن من عصاه تعــالى أرحم به من أمه . . فقد قــال تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ ﴾ [النساء : ١١]

فالله سبحانه يوصى الوالدين . . لأنهما مظنة الإهمال . . أما هو سبحانه وتعالى فهو أرحم الراحمين . .

---

(١) ابن ماجه فى كتاب الحدود (٢/ ٨٦٣).

وقد أشار ﷺ إلى رحمته فى قوله : « **يا ابن آدم : قم إلىّ.. أمش إليك.. وامش إلىّ.. أهرول إليك** »(١) .

ولاحظ أن العبد – وبمجرد أن ينهض– فإن الله تعالى يمشى إليه.. إنه الرحيم الذى .« إذا علم من عبده ندما على ذنب .. غفره له قبل أن يستغفر»(٢) .

ومن أجل إحساسه بسعة رحمته تعالى.. قرر أن يكون صادقاً مع نفسه.. ومع الله .. ومع الناس .. فاعترَف بذنبه .. وعلى الملأ ..

لقد قرر بالصدق أن يموت جميعاً ؟! وكيف يموت الرجل جميعاً ؟؟

لقد ظهر من تصرفه أنه مذنب غير محترف.ولكن الجريمة قد فرضت عليه.

وإذن فسوف يُلاحقه شبحها.. بالليل.. والنهار .. بمعنى أنه سيموت.. كل يوم ، وكلما تذكرها .. لكنه آثر أن يعترف .. ويزيح عن كاهله هذا العذاب .. ليموت مرة واحدة عند أجله .. ويموت جميعاً !!

إن دائرة المعلم الكبيرة .. تشمل دائرة التلميذ الصغيرة فى بؤرتها - من حيث إن المركزين متحدان فى نقطة واحدة .. ولم تتحرك النقطة الصغيرة لتخرج من محيطها .. وإلا تلاشت .. وذهبت هباء ..

ومن لم يكن له ماض .. فلا مستقبل له !

---

(١) [رواه الحاكم].

(٢) [رواه أحمد بسند صحيح] .

باحث عن الشفاء

إن الرجل إذن .. بات غير راض عن نفسه .. أعنى أنه تخلص من بذرة المعصى وهى : الرضا عن النفس ليكون صالحاً من بعد للطيران ..

[يقول ابن عطاء الله :أصل كل معصية وغفلة وشهوة : الرضا عن النفس. وأصل كل طاعة ويقظة وعفة : عدم الرضا عنها .ولأن تصحب جاهلاً لا يرضى عنه نفسه . خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه ..فأى علم لعالم يرضى عن نفسه .. وأى جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه].

ويوضح هذا شيخنا الغزالى فيقول :

[لا يبحث عن الشفاء إلا من أحس بالمرض ..أما من أصيب بعلة . فلم يشعر بها .. ولم يستشف منها .. فإن جرائيمها تستشرى فى أوصاله حتى تأتى عليه .

وكذلك النفس الإنسانية :لا يطلب لها العافية إلا من أدرك ما بها من أدواء . والشعور بالنقص أول مراحل الكمال] .

وإذن فقد كان الرجل باحثاً عن الشفاء صادراً عن يقين بالحكمة القائلة: [قد تتأخر العقوبة . وتأتى فى آخر العمر ..

فيا طول التعثير مع كبر السن .. للذنوب كانت فى الشباب .

فالحذر الحذر من عواقب الخطايا .. والبدار البدار إلى محوها بالإنابة][1].

وها هو ذا يعود .. قبل أن تزاحمه أيامه شاهدة عليه .. وجوارحه . ناطقة بما عمل .

من بركة الصدق :

ومن بركة صدق الرجل أن أصحاب البعير .. كانوا صادقين حين أخبروه

---

(١) صيد الخاطر :٣٦٦ .

ﷺ أن بعيراً واحداً .. افتقدوه .. وكان بإمكانهم أن ينتهزوها فرصة .. فيدعوا أنها جمال .. وليست جملاً واحداً .. طمعاً فى مزيد من التعويض !

لكنهم لم يفعلوا .. ولن يفعلوا ما دامت عين الدولة ساهرة تنوب عنهم فى إنصافهم ..

وقبل هذا ما دام الضمير صاحياً .. يمارس رقابته وإن غفا يوماً! ولاحظ أن الرجل لم يقل : أقم علىّ الحد .. وإنما قال : طهرنى .. وإذن فإحساسه عميق بأن جريمته فقط لم تكن فقط لأنه سرق جملاً .. ولكن لأن النبع الصافى الذى أنشأه الإسلام فى كيانه .. تنجس .. وسرت العلة فى هذا الكيان كله .. ومن ثم فهو يطلب حملة تطهير تعود به كما كان صافياً رائقاً .

سلامة
إجراءات التحقيق

ومن سلامة إجراءات التحقيق هنا :

أولاً : سرعة هذه الإجراءات .. وإلا فالعدل البطىء نوع من الظلم .

وثانياً : استدعاء الطرف الآخر .. لسؤاله ..

وكان من عادته ﷺ أن يسأل قوم المذنب مرة .. بل مرات .. هل هو بكامل قواه العقلية .. بعد ما يدقق مع الجانى نفسه؟.

فإذا تم ذلك .. نفّذ الحكم بلا تردد .. فلا شفاعة فى حد من حدود الله تعالى ..

الرد القاطع :

وإذ يتنادى أناس اليوم زاعمين أن قطع اليد وحشية لا تليق بالمدنية .. فإن فى موقف هذا الرجل رداً لفريتهم .. وتفنيداً لزعمهم ..

فالمقطوع نفسه . . يعترف بأن ما حدث تطهير . . لا تشهير . . ولقد أنقذ بيده المقطوعة مستقبله كله . . بل وأنقذ كل من تسول له نفسه أن يكرر نفس الخطأ .

من دروس الموقف :

١- لابد أن يتوفر فى العقاب عنصر الردع . . حتى يحقق العقاب هدفه . . وإلا . . فإن ضعف الزاجر منه شأنه أن يدع مسلسل الجريمة سارى المفعول :

وما زلت أذكر ذلك الغنىّ . . والذى استدعاه ولده - بالمحمول - لينقذه من رجل حطم هو سيارته . . وجاء الوالد الذى دفع للرجل ما يغطى خسارته . . ثم أقسم ألا يركب ولده « المرسيدس » بعد . . وإن كان ولا بد فليركب ما يليها فى الرتبة . . وتمخض الجبل فولد فأرا . .

أما هنا . . فقد تمخض الجمل فولد ثأرا . . ثأرا تتولى الدولة إيقاعه بسلطان القانون . . حتى لا تمتد يد من بعد بأذى .

٢- ضرورة التماس الأعذار للناس . . والتعامل معهم بعد الذنب كأنهم لم يذنبوا . . بعدما عادوا بالتوبة أطهر مما كانوا . .

إننا أساة . . ولسنا قضاة . .

وليت شعرى :لقد ماتت الراقصة فقال قائل : لقد حجت عشرين مرة . . لكن ذنوبها لن تغفر بالمرة . لن يغسلها حتى البحر المتوسط . .

وقلت له : تذكر . . المرأة البغىّ من بنى إسرائيل . . والتى سقت كلباً . . واحدا . . فغفر الله تعالى لها . .ولعل هذه المرأة المسلمة سقت إنساناً . . لا كلباً . . بل لعلها أطعمت . . وسقت أناسىّ كثيراً . . ولعل الله تعالى قد قبل منها . .فهل أنت أغير على الدعوة من صاحبها سبحانه ؟.

ورحم الله شيخنا الغزالى : لقد كـان يلقى محاضرة فى بلد إسلامى . . وبعد الفـراغ منها علم أن الحراس منعـوا راقصة راغـبة فى لقائه . . فـأمرهم بإدخـال المرأة التى اندفـعت إليه واضـعـة رأسهـا فى حجـره . . الذى بللتـه دموعها . .

والموقف لا يحتاج إلى تعليق .

الله معك .. فهل أنت معه ؟؟

روى : « أن الله عزَّ وجلَّ ليحمى عبده المؤمن الدنيا .. وهو يحبه .. كما تحمون مريضكم الطعام والشراب » [1].

وفى رواية :

« إذا أحب الله عـزَّ وجلَّ عبدا حـماه الدنيـا كما يظل أحـدكم يحمى سـقيمه الماء»[2].

ويعنى ذلك : أن الله تعالى يحمى عبده من فتنة الدنيا . . وهذا صلاحه .

كـما أن صـلاح المريض بحـرمانه من الطعـام والشـراب . . استـسلامـاً لتوجيهات الطبيب .

وهكذا . . يكون الله تعالى معنا . . ويبقى أن نكون معه !

وإذا كان المادىّ يعـيش بالدنيا . . وللدنيـا . . فإن المسلم يعيش للمـبادئ التى وصاه الله تعالى بها . . وليست المصيبة أن نموت . . لكن المصيبة أن تموت فينا هذه المبادئ !

ولله تعالى عباد فُطُن . . طلقوا الدنيا . . وتوقوا الفتن . . وكانت همتهم الكبرى معلقة بالآخرة . . متجاوزة فتنة الدنيا :

نظر بعض الصـالحين إلى نوع من الفـاكهـة كان يشـتهـيه . . ثم قـال : موعدنا . . الجنة !!

إنه راحل إلى ربه .. فملاقيه .. ومن ثم فهو يعد الزاد للرحلة الطويلة.

وقبل هذا يعد نفسه لموقف الحساب .. متجاوزا متاع الدنيا .. مؤثراً الزاد الأبقى .. زاد التقوى .. مهاجرا إلى الآخرة .. فهى الأبقى . وحتى فى خضم المعارك . حيث تضغط نوازع الانتقام فإنهم لا يتخلون عن مبادئهم التى تقول لهم :

تقول لهم : لا تحملوا غير زادكم
ولا تفسدوا عذباً من الماء جاريا
ولا تهلكوا زرعاً ولا تهتكوا حمى
ولا تستبيحوا نسوة أو زاريا
ولا تحرقوا باللائذين كنائسا
ولا تهدموا باللاجئين مغانيا
ولا ترهقوا الأسرى فرب محارب
إلى الحرب يسعى مكرها لا معاديا

الكنز الثمين :

لقد كانت سعادتهم فى زيادة إيمانهم .. فإذا أحسوا نقص هذا الإيمان فزعوا .. ولو كانوا يملكون ناصية الدنيا :

نظر الإمام الشافعى إلى رجل .. فظنه بخيلاً .. لكن هذا البخيل قد استضاف الإمام .. فوجده الإمام كريماً فحزن الشافعى لمرض فراسته التى لا تخطئ أبدا . ولكن السرور الغارب يعود إلى قلب الإمام لما طالبه الضيف بثمن ما أكل من طعام !!!

(١) رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد - الترغيب ج (٤/ ٤٦٣٢).
(٢) ابن حبان - والحاكم وقال: صحيح الإسناد - ٤٦٣٣ .

إن الإمام الشافعى هنا .. لا يهمه إلا فراسته .. إلا توفيقه لطاعة ربه.. وفراره من معصيته .. فتلك هى الثروة الأبقى .

أما نحن فنزهد فى كل ما يذكرنا بالآخرة : نزهد فى الفقيه .. والقارئ .. وحفار القبور .. نزهد فى كل ما يذكرنا بالآخرة.. مؤثرين كل ما يعمق إحساسنا بالدنيا.. متجاهلين عنصر الأخلاق.. وهى جوهر حياتنا . وصدق القائل :

أرى حللا تصان على أناس
وأخلاقا تُهان .. ولا تصان

يقولون : الزمان به فساد
وهم فسدوا .. وما فسد الزمان !

كان أحد النساك يسير مع أحد الملوك .. فمرا بمقبرة .. وانتهزها الناسك فرصة فقال للملك : أما تدرى ما تقول هذه المقبرة ؟

إنها تقول : أيها الركب المخبّون على الأرض المجدُّون كما أنتم .. كذا كنا .. كما نحن .. تكونون !

تقول الرواية : وكان الملك وثنيا فأسلم

وما أحفل أسواق الخير بالسلع الثمينة .. ولكن أهل الهوى لا يبصرون.. بل لا يشعرون .. وكانوا من الإسلام على ما قيل : يدخل رجل مخزن الإسلام.. فيشترى شراباً .. ورباط عنق .. ثم يخرج من الدنيا عرياناً !

درس فى الإنصاف

على أى أساس تقوم علاقة الحاكم بالمحكوم ؟

على أساس من النفاق ؟ ... لا ! لأن الحاكم حينئذ يملك الأجساد ..

يملك الأشباح .. لا الأرواح .. ومهما ملأ الجيوب .. فإنه لن يملك القلوب!!

بمجرد التبعية ؟ .. لا ! لأن الله تعالى يقول : **﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ..﴾** [البقرة : ١١٦].

بتبادل المنافع ؟ .. أيضاً : لا .. لأن الله تعالى يقول : **﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾** [الزخرف : ٦٧].

ولكنها في الإسلام شيء آخر : إنها إنسانية الحاكم .. والتي تنشر رحمتها على المحكوم .. الذي يجد في ظله برد الأمان .. وما يترتب على ذلك من ثقة متبادلة . يصلح الله تعالى بها الحاكم .. والمحكوم معا .. فإذا طاقة الأمة متجهة إلى البناء والتعمير .. بدل أن تتبدد في معارك جانبية تستنزف هذه الطاقة .. بددا .. وفي غير ميدان. وهذا الموقف الذي نحن بصدد التعليق عليه واحد من دروس الإنصاف التي استطاعت القيادة به أن تجمع القطيع الشارد على كلمة سواء .

خطب رسول الله ﷺ . وهو في مرض موته . فقال : « **من كنت جلدت له ظهراً .. فهذا ظهري فليستقد منه . -ليتقدم ليقتص مني - ومن كنت شتمت له عرضاً .. فهذا عرضي فليستقد منه . ومن كنت أخذت له مالاً .. فهذا مالي فليستقد منه لا يقول رجل : إني أخشى الشحناء من قبل رسول الله ﷺ - : ألا وإن الشحناء ليست من طبيعتي .. ولا من شأني . ألا إن أحبكم إليّ : من أخذ حقا كان له .. أو حللني .. فلقيت الله وأنا طيب النفس**» .

فقام إليه رجل فقال : يا رسول الله : إن لي عندك ثلاثة دراهم - !! -

قال : «**أما إنا لا نكذّب قائلاً . ولا نستحلفه .. ففيم صارت لك عندي ؟** »

قال : تذكر يا رسول الله يوم مَرّ بك مسكين . فأمرتني أن أدفعها إليه .

فقال : «**ادفعها إليه يا فضل** » « ابن عمه »[(١)] .

(١) رواه أبو يعلى والطبراني في الكبير والأوسط.

تمهيـــد :

قرأت مقالاً لواحد من أشياخنا حول هذا الموقف تحت عنوان :

درس فى العدل

وقلت على الفـور : لا . . بل هو درس فى الإنصـاف . لأن العـدل أن يقول ﷺ هنا : من جُلـد ظهره . أو شتم عـرضه . أو أخذ مـاله . . فأنا معه حتى آخذ له حقه . .

أما إذا كـان المسلم طرفـاً فى القضـية . ثم يأتى طواعـية واخـتيـارا . . ليحرض قومه على أن يناقشوه الحساب . . وأنه مـستعد للقصاص . . فهذا ما لا عهد للبشرية به . . على مستوى الحكام على الأقل .

إن كثيرا من الرواد ونستعير هنا قلم «جبران» - يقولون فى أنفسهم : أريد أن أنتفع من أمتى .بينما شعار الأطهار : أريد أن أنفع أمتى .

وكثـير منهم تجـار : يتخذون من عَـوَز الناس وسيلة للربح والانتـفاخ : فيحـتكر الضروريات . . ليبيع بدينار مـا ابتاعه بدرهم وقد يسـهل التبادل بين الحائك والزارع . . ويجعل نفسه حلقة بين الراغب والمرغوب . . فيفيدهما . . ثم فى النهاية يستفيد !

وقد ينسج المدير سـذاجة الناس لباسـاً ورياشاً ويصوغ مـن بساطة قلوبهم تاجاً لرأسه . . ثم يدعى كره إبليس . . بينما يعيش بخيراته .

لكن التـقى الورع :يرى فى فضـيلة الفرد أسـاسا لرقى الأمـة فى مدارج الكمال فإن كنت الأول: فأنت لا شيء : صمت النهار . أم صليت الليل .

وإن كنت الثـانى :فأنت زنبـقة فى جنة الحق . ضـاع أريجهـا بين أنوف البشر. . أو تصاعد حرا طليقـاً . . إلى الغلاف الأثيرى . . حيث تحفظ أنفاس الأزهار .

وعلى هذا النحو يريد ﷺ أن يصوغ أمته لتكون حقا شاهدة على الناس

إنه ليس ذلك الرائد : الذى يتصاغر أمام ولى نعمته . . ليستصغر من تولى عليهم ولا يحرك يدا إلا ليضعها فى جيوبهم . . ولا يخطو خطوة إلا لمطمع له فيهم . .وإنما هو الخادم الأمين الذى يدير شئون الناس . ساهراً على مصالحهم . ساعياً لتحقيق أمانيهم .

مغزى الموقف :

إن الرسول ﷺ . . وفى آخر عهده بالحياة . يوزع تركته :

وتركته كإخوته من الأنبياء ليست ديناراً ولا درهماً . . وإنما هى القيم . . التى يمكن لها فى القلوب حتى فى اللحظة التى يشغل فيه الإنسان بنفسه . . وهو يجود بآخر أنفاسها .

وحين تختلط المبادئ بالمصالح . .وتتشابك الأفكار مع العواطف . . فإنه ﷺ يحرر المبادئ مما علق بها من أهواء البشر . .

وإذا كان أصحاب المنافع يدورون معها حيث دارت . . ولو على أشلاء الضحايا . . فإن أرباب المبادئ . يكونون حيث تكون القيم . . وإن لم تتحقق لهم مصلحة فردية . . ألا يسترخص المؤمن روحه . . متى كان ذلك سبيلا إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل . .

وهكذا كان الرواد الأوائل فى مدرسة الرسول ﷺ : يدورون مع الحق. . ناسين حظوظ أنفسهم صاعدين من العدل إلى الإنصاف.

لقد غضب علىّ - رضى الله عنه- لما ناداه القاضى بكنيته . . دون خصمه . .

وعمر - رضى الله عنه -. . يقيم على «عمرو» الحد فى مصر. . يقيمه سرا. . لا .

لكن عمـر - رضى الله عنه - يوبخ الوالى.. ثم يعـيد إقامـة الحد على ابنه. .وعلانية !

إن قـيمـة الإنصـاف يجب أن تبـقى ولو ذهب عـمر.. وآل بـيت عمـر جميعاً..

وكان عـمر كذلك لأن رائده ﷺ لم يكن يـكذب أهله .. وإنما كانت شرعته الإنصاف .. فسار على دربه الأصحاب ..

ولو أنه رتع .. لرتعوا !!

سـؤال :

ولكن.. متى جلد رسول الله ﷺ ظهرا. أو شتم عرضا أو أخذ مالا ؟

لقد كـان هو الذى حمى الظهور من عدوان جـلاديها .. فاستـقامت .. وارتفعت الهامات اعتزازاً بدين الله عزَّ وجلَّ .

ثم هو النبى العربى الذى اختصت لغـته بمعنى « العرض» الذى لا نظير له فى أية لغة من لغات الدنيـا . والتى خلت من هذا المعنى .. فلم تحفل به ولـم تصنه ؟

وفيـما يتعلق بالمال .. فـنحن نقول : هل كان ﷺ يأخـذ .. أم كان يعطى ؟

إنه القائل - ﷺ :« أنا أولى بالمؤمنين من أنفسـهم : فمن توفى من المؤمنين . فترك دينا .. فعلىّ قضاؤه . ومن ترك مالا فلورثته » متفق عليه .

موقف الصحابة

ولقد كان الصحابة - رضوان الله عليهم - يعرفون ذلك ..

ومن ثم كان المتوقع أن يسكـتوا .. صادرين فى صمتـهم عن يقين عميق

بأنه ﷺ ما جلد ظهرا .. ولا شتم عـرضا .. ولا أخذ مالا .. بل إذا كان ولابد من حساب .. فأولى بالصـحابة أن يكونوا هم فى موقف الاتهام .. لا الرسول ﷺ .. الذى جاءهم بالهدى. وحماهم من الردى ..

من الاهتداء .. إلى الاقتداء

ولكن الرسول ﷺ يريد فيما يريد .. أن يعـمق فى قلوبهم قيمة أخرى هى : الشجـاعة الأدبيـة .. والتى تعنى إيثار الحق والانحـياز له مـهمـا كانت التكاليف .. يريد الاستعلاء بهـم فى مدارج الرقى .. حتى لا يرضوا بالذرى بديلاً. وإذا كان أهل الدنيا يتنافسون فى اللذات هابطين .. فأولى بالمؤمنين أن يتنافسوا فى الكمال صاعدين : اهتداء بالكتاب . واقتداء بالرسول .

ويعنى ذلك : أنه ﷺ لا يقول ذلك استهلاكاً محلياً . ولا خروجاً من العهـدة .. وإنما يحرضهم تحـريضاً بقوله :هذا ظهـرى .. وهذا عرضى .. وهذا مـالى .. هأنذا بين أيديكم فـمن شاء أن يقـتص منى فـأنا جاهز لهـذا القصاص .. إنه إذن لا يقول الإنصاف كـلاماً .. ولكنه يصنعه صنعاً. ولكن الحياء قد يعقد الألسنة .. فلا تنطلق بما تعتقد أنه الحق .. من أجل ذلك يقول لهم :لا يقول رجل إنى أخشى الشحناء من قبل رسول الله ﷺ .. ؟

لا يسكت واحد عن المطالبة بحقه خشية منازعة الرسول له .. لأن الشحناء ليست خيطاً فى طبيعتـه .. ولا هى من شأنه .. فلو فرض أنه تكلفها .. ما طاوعتـه نفسـه .. بل إنه إذا - كان فـيكم من يسكت حيـاء .. ومن يطالب بحقه.. فأحبكم إلى : من يطالب بحقه .. ويأتى المتسامح فى مرتبة تالية ..

يقول ﷺ ذلك لمن قـالوا له من قبل : خذ من أموالنا مـا شئت . وما تأخذه أحب إلينا مما أبقيت ..

وهكذا تكون العلاقة بين الحاكم والمحـكوم .. فى أمة من دعائها : اللهم أصلحنا لحكامنا .. وأصلح حكامنا لنا !

النفس العظيمة :

إنها نفس القائد العظيم . . والتى تعطى لحظة الفراق ما تجمل به الحياة وتكمل . . بل إن العطاء لحمتها وسداها . .

ومن قوانين هذه النفس فى حياة الأفذاذ :

{ إن جاع ميسور لا يؤخذ منه . . أشد هولا من قنوط فقير لا يرزق . .

وأفضل أن أكون قيثارة تشنف الآذان . . على أن أكون قيثارة فضية الأوتار . . فى منزل : ربّه مبتور الأصابع . . وأهله طرشان { !!

{ إنها النفس المثقلة بثمارها . . والتى تحمل الرخاء إلى الأرض الجدباء . . إنها النفس التى تنادى فى الناس :

{ أنا مثقلة بثمارى : ألا فارحمونى . . وخذوا منى . اشفقوا علىّ . . وخذوا ما معى . . نفس مثقلة بثمارها : فهل من جائع . . يجنى ويأكل ويشبع ؟ أليس بين الناس من صائم . . يفطر على تناجى . . ويريحنى من أعباء خصبى وغزارتى ؟ .

نفس رازحة تحت عبء من التبر واللجين . .

فهل بين الناس من يملأ جيوبه . . ويخفف عنى حملى ؟{

الدرس .. يؤتى أكله :

وقد وضح ذلك فى موقف هذا الرجل الذى قال :

يا رسول الله : إن لى عندك ثلاثة دراهم . !! ونستشعر هنا رد الفعل العنيف لدى الصحابة من هذا الادعاء الذى يواجه به رسول الله ﷺ . . وكأنى بهم يحدثون أنفسهم بما يلى :

١- إنها فقط ثلاثة دراهم . . قدر زهيد . . فَلِمَ الإحراج؟!!

٢- ثم إنها خرجت من يد الرجل .. مباشرة إلى يد مسكين ..

٣- لم يعطها لقريب له أو محسوب عليه !

٤- ثم هى صـدقة منك على المسكين .. فـقد أعطيـتها مـالاً .. فكانت لك ثواباً .. مآلا !

٥- وقد اختصك ﷺ بـالذات .. دون رفاقك من الجالسين .. فليكن ذلك شرفاً أربى فى ميزانك من هذه الدريهمات !

الدفاع عن الرجل :

ويسارع الرسول ﷺ إلى إسكات هذه الخواطر :

أولاً : دفاعاً عن الرجل .

وثانياً : رأبًا للصـدع الذى يمكـن أن يحـدث بين الصـحـاب .. ليظلوا موحدين متوحدين ..

وإذا كان من قيادات الدنيا من سياسـته : فرّق تسد .. فإن محمدا ﷺ يوحد أمته .. ولا يُمكِن الشيطان الرجيم من أن يجد ثلمة ينفذ منها ليجعلهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض ..

حسن الظن :

من أجل ذلك يقول .. وفور انتهاء الرجل من بسط دعواه :

أما إنا لا نكذِّب قائلاً .ولا نستحلفه ..

وإذن فالرجل صادق فى دعواه طبق هذه القاعدة .. التى تبـدو فيها قيمة الثقـة بالمسلم الذى هو بحكم إسلامه صـادق فى دعواه .. لا يكذب .. ولا يطالب باليمين تأييداً لدعواه ..

حتى يظل القائد .. قائداً

ولكن الدعوى على أى حال - وبمنطـق البشر - لا شك محدثه شبـهة قد تفسد التصور فتفسد الأحكام . .

من أجل ذلك يثنّى ﷺ بقوله :ففيم صارت لك عندى ؟

كيف أخذتُها منك؟ . . وفى أية ظروف تم ذلك ؟.

وذلك حـتى لا تذهب الظنون بالناس كل مـذهب . . وحتى يظل القـائد قائداً . . وقبل أن يتخذها المغرضون تكأة لهم فى ترويج بضائعهم الكاسدة .

أدب المسلم :

ويبدو الفتى المـسلم على غاية ما يكون الأدب : فهـو لا يقول للرسول : إن لى عليك . . ولكنه يقول : إن لى عندك . .

فاستـبعد حرف الجر . . على . .ومـا يفيده من إلزام . . وصور القـضية كأنها أمانة عنده الرسول. .وهو وإن لم يستردها فهى عنده فى الحفظ والصون!

ثم إنه يقول له : (تذكر يا رسول اللـه يوم كذا . . وإذن فلم تكن الواقعة أمس . . أو أمس الأول . . وإنما هى واقعـة قديمة . . بعيـدة . . رابضة هناك فى اللاشعور . . ومن ثم . . يذكره بها . .

ويعنى ذلك : أن الرجل لم يكن فى نيته أن يطالب بـدينه . . فقد مضت مدة طويلة ولم يـطالب به . . وإنما المطالبة له . . وليـست عليه : لأنه ﷺ يلح على كل صاحب حق أن يطالب به . .

ورغبة من الرجل فى أن يلقى الرسـول ربه «طيب النفس» فإنه يطالبه . . يطالبـه بأمر منتـه بالفـوز بحبـه ﷺ . . وهو غـاية المراد من رب العبـاد . وإذن. . فالطلب محسوب له . . لا عليه !

قيمة صلة الرحم :

ولا يغيب عن البال قيمة صلة الرحم .. عندما أمر ﷺ ابن عمه .. الفضل .. والذى قضى دينه .. وقبل هذا كان هو .. الذى جاء بالنبى ﷺ إلى المسجد ليخطب هذه الخطبة وهو: موعوك .. معصوب الرأس .. وهكذا أبناء العم دائماً : أو ما يجب أن يكون : معا فى الملمات ..

المربى .. الإنسان :

قال عمر بن عبد العزيز يوماً : « أيها الناس : إنما يراد الطبيب .. للوجع الشديد . ألا فلا وجع أشد من الجهل . ولا داء أخبث من الذنب . ولا خوف أخوف من الموت ».

ولقد كان ﷺ هو الطبيب .. الذى حرض مرضى الذنوب على التحلى بشجاعة الاعتراف بالذنب .. حتى يتم تشخيص العلة .. وتتأكد رغبة المريض فى الشفاء ..

وإلا فإن الجبن المانع من طلب الشفاء .. دافع إلى سريان العلة إلى الحد الذى تتفاقم فيه تداعياتها ..

ولقد ظهر ذلك .. في نفس هذا الموقف الذى شجع فيه صاحب الدراهم الثلاثة إخوانه على أن يكونوا صادقين مع أنفسهم ومع رسولهم ﷺ .. فى محاولة لاستئناف حياة جديدة :

جاء فى مجمع الزوائد :

ثم قام إليه رجل آخر . فقال :

عندى ثلاثة دراهم غللتها .

قال : «**ولم غللتها ؟**»

قال : كنت محتاجاً إليها .

قال : « خذها يا فضل » ثم قال : « يا أيها الناس : من خشى من نفسه شيئاً . فليقم ندعو له» .

من أصول التربية :

إن أول خطوة على طريق الشفاء أن يحس المريض بعلته . . ثم يرغب فى التخلص منها . مضحياً بما قد يترتب على هذا الاعتراف من حرج . . وذلك بعدما وجد اليد الحانية تمتد إليه وهذا ما حدث بالفعل. فقد قام رجل فقال : يا رسول الله إليه . .

والله إنى لكذاب . وإنى لمنافق . وإنى لنؤوم .

فقال ﷺ : «اللهم ارزقه صدقا . وإيماناً . وأذهب عنه النوم إذا أراد» .

ولاحظ من مظاهر عمق رغبة الرجل فى الخلاص . أنه يتطوع من تلقاء نفسه مؤكداً كل خصلة من هذه الخصال الوبيلة . . بالقسم . . ونون التوكيد . . مشفوعة باللام . .

ولا شك أن غريزة حب الذات كانت تنازعه لكنه غلبها مؤثراً براءته من علته على الأوضاع الاجتماعية . . وما تفرضه من فضيحة يخف بها ميزانه لدى الناس . . ويجىء دعاء الرسول ﷺ بلسما شافياً . . وهو فى نفس الوقت شهادة بصدق رغبة الرجل فى التخلص من أوضاره صدقاً أعان الطبيب على وصف الدواء الشافى بإذن الله تعالى .

ولاحظ من فقهه ﷺ هنا قوله : «إذا أراد»

ذلك بأن الخطوة الأولى على طريق الشفاء تبدأ من قلب المذنب نفسه : فإذا أراد الشفاء . . ورغب فيه . . بل وصمم عليه كان ذلك سبيلاً إلى بلوغ المراد .

وهذا ما يقرره علماء النفس اليوم عندما يشترطون للشفاء أن يكون المريض صادقاً مع نفسه . . وإلا . . فلا أمل فى الشفاء !

يقول الأستاذ أنيس منصور :

تقدر أن تقول لنفسك كل يوم قبل أن تخرج من بيتك : لن أكذب . . لن أحسد . . لن أحقد . . لن أفكر فى الانتقام ، وسوف أضىء وجهى بابتسامة عامة ، أى لكل الناس ، إذا أنت نفذت هذا الذى تقول فقد خطوت أكبر خطوة فى سكة السلامة النفسية والاجتماعية . .

وقبل أن تضع المفتاح فى باب الشقة تقول في نفسك: لن أغضب. . لن أشخط . . حتى إذا لم أجد الشبشب فى مكانه، ولم أجد الملح على السفرة. . وحتى لو وجدت الشبشب مكان الملح فسوف أقول: ومن الذى لا يخطئ؟ ومن الذى لا ينسى؟ . . ولن أجعل نفسى ناظر مدرسة. وفى يدى عصا لضرب كل البشر لمثل هذه الأخطاء التافهة . . لماذا أحطم أعصابى ودماغى كل يوم ؟!

فإذا فعلت ذلك كانت هذه هى الخطوة الثانية والأخيرة للعبة السلام مع النفس ومع الآخرين . صحيح الإسلام كاملاً ، ولكنه السلام الممكن من أجل الراحة الممكنة فى هذا العمر القصير . .

يعنى ماذا ؟ يعنى أن فى داخل كل إنسان صيدلية بها كل الأدوية . .

وأن الإنسان طبيب نفسه . وأنه يكفى أن تكون عنده إرادة السلام ليكون سالماً . . وإرادة الصحة ليكون سليماً ، وعالم النفس فرويد يقول : إن الإنسان عنده غريزة حياة ، وعنده غريزة موت . . فهناك أناس حريصون على حياتهم وحياة الآخرين . . وكذلك موتهم وموت الآخرين .

وأنت الداء وأنت الدواء . فإذا كان هناك علاج ذاتى فهناك شفاء إرادى . هذه نظرية جربها علماء كثيرون ، ونجحت . وكل طبيب ينصح المريض بأن

يؤمن بأنه سوف يكون أحسن . ومن غير هذه الإرادة يصبح الدواء ضعيفاً .

وكان تلامذة الحكيم بوذا يرونه جالساً طويلاً وأمامه الطعام ولا يمد يده ، فيسألون . . ويقول : ليس صحيحاً أن الطعام هو الذى يغريني فأمد يدى وأضعه فى فمى ، وإنما أنا الذى ينظر إلىّ الطعام وأشتهيه . وأنا الذى يجعل الطعام شهياً . فإذا صار شهياً أحسست بالجوع ، وبعد ذلك بالشبع . . فأنا الذى أحب، وأنا الذى أكره . . وأنا الذى قررت الحقد والكره والرغبة والزهد . .

فإذا أنت قلت للخير : نعم . . وللشر : لا . . فلست فى حاجة إلى مستشفى . . فأنت المريض . . وأنت الطبيب ، وأنت الدواء . .

الفضيلة تسرى بالعدوى !

يقول بعض الصالحين : لكى تتقى حقد الناس عليك : كن قاسياً على نفسك . . كريماً معهم .

لقد كان من ثمرات هذا الموقف المبارك . . أن حرك الرغبة فى الخلاص لدى بعض الجالسين . . الذين فرض عليهم منطق الرسول ﷺ أن يستجيبوا لدعوته إلى الاعتراف بما قدمت أيديهم وصولاً إلى تحقيق أعز أمانيهم . . حين يدعو رسول الله لهم فيتقبلهم ربهم . .

إن الخطأ وإن كان فاحشاً . . مع الاسترشاد . أحمد من الصواب مع الاستبداد . .

وهو نفسه الدرس الذى يعلن عن نفسه من خلال هذا النقد الذاتى . . لرجال غالبوا نوازع النفس . . ثم فى النهاية غلبوها . .

وذلك عندما توفرت لديهم شجاعة الاعتراف بالخطأ . بعدما استيقظ الضمير فيهم . . والذى هب مذعورا فى كيانهم . . فى محاولة لتطهير النفس من أدرانها . . فى أمة يقول صالحها :

لأن أترك التهجد فى الليل.. لأصبح مستغفراً.. خير لى من أن أتهجد. ثم أصبح مغروراً..

أجل هبوا.. تحت وطأة الإحساس بأن أحدهم قد يستغنى عن الطعام والشراب أياما.. بل قد يستغنى عن الهواء لحظات.. لكنه لا يستغنى عن فضل الله تعالى لحظة من زمان. وها هى ذى تباشير هذا الفضل متمثلة فى دعوته ﷺ إلى الاعتراف سبيلا إلى الخلاص.

تصحيح المفاهيم :

ولقد سرى ذلك التيار فأيقظ النوام الذين هبوا من رقادهم متحررين من كيد الشيطان.. وهذا.. رجل ثالث يقول : إنى لكذاب. وإنى لمنافق. وما من شىء من الأشياء إلا وقد آتيته.

فقال له عمر : يا هذا : فضحت نفسك !

قال : «**مه يا عمر فضوح الدنيا. أيسر من فضوح الآخرة**»

ثم قال : «**اللهم ارزقه صدقاً. وإيماناً. وصير أمره إلى خير**» فكلمهم عمر بكلمة فقال رسول الله ﷺ : «**عمر معى. وأنا معه. والحق بعدى مع عمر حيث كان**».

فقام رجل فقال : يا رسول الله : إنى رجل جبان. كثير النوم.

قال : فدعا له. قال الفضل : فرأيته أشجعنا. وأقلنا نوماً.

قال : ثم أتى بيت عائشة.. فقال للنساء مثل ما قال للرجال.

ثم قال : «**من غلب عليه شىء. فليسألنا ندعو له**».

قال : فأومأت امرأة إلى لسانها. قال : فدعا لها.

لقد كانت دعوة الرسول ﷺ مسك الختام الذى توج الله به جهاد هؤلاء

مرضى .. جهدهم أنفسهم النزاعة إلى تجاهل العلة دون حساب لمخاطر المستقبل .

موقف المرأة :

وإذا كان موقف الرجال هنا عجيباً .. فأعجب منه موقف المرأة التى تناست طبيعتها .. ثم داست على أشواقها .. متجاهلة ما سوف يجر عليها الاعتراف من قبل زميلاتها من شماتة ..

لكنها قررت أن تفر إلى الله تعالى .. والفار إلى سيده لا يلوى على شىء .. ولا يفكر فى شىء إلا فى الوصول إلى بر الأمان ..

ولاحظ من حكمتها أنها لم تعلن عن نفسها كما أعلن الرجال .. ولكنها فقط تشير إلى لسانها .. لأن أمرها قائم على الستر ..

ألا إن الإنسان ليحب حسن السمعة . وطيب الذكر ..

لكن التجربة تقول: لا يكفى أن نحب شيئاً ليصبح بمجرد حبه ملكا لنا..

بل يجب قبل ذلك أن ندفع الثمن .. مهما كان ذلك الثمن ..

ولقد دفع الناس هنا الثمن ..

وقد يبدو الثمن أحياناً صغيراً .. لكنها سماحة الإسلام التى تجعلنا نحقق بالعمل الصغير أعظم أمانينا .

درس فى الوحدة :

وما تزال قيمة الوحدة هي الدرس الأثير فى خطابه ﷺ فى مرض موته..

الوحدة التى لم يكن يلقيها خطباً .. وإنما يتمثلها عملاً وسلوكاً .. تلك الوحدة التى تبرز ما هو مدفون فى الذاكرة من مظاهرها فى القرية أيام كانت

الدنيا دنيا . . والزمان زماناً :حين كان الشيوخ جالسين بظل أشجار الصفصاف. . وقد جلس الصبيان حولهم يسمعون أخبار الأيام . .

الكهول : يحصدون الزرع . والنساء . . يحملن الأغمار . . ويترنحن بأناشيد الغبطة والسرور . مستعيضات عن الملابس بأكليل من السنابل . . ومنطقة من أوراق الأشجار . .

وهناك : ترى الألفة مستحكمة بين الإنسان . . والمخلوقات : فجماعات الطير والفراش . . تقترب منه آمنة . وأسراب الغزلان تنثنى نحو الغدير واثقة .

نظرت : فلم ألق فقرا : بل ألفيت الإخاء والمساواة . ولم أر طبيباً . . إذ كلٌّ غدا طبيباً بحكم المعرفة والاختبار . ولم أر محامياً . . لأن الطبيعة قامت بينهم . . تسجل معاهدات الألفة والوئام . .

هناك فى أحضان الطبيعة : ترى الجمال عريساً . والنفس عروساً . . والحياة كلها : ليلة القدر }.

ويبقى أن يبقى حق الرعيل الأول فى أعناقنا : حبا . . وتوقيراً : لقد قضوا الذى عليهم. وبقى الذى لهم: فاقبلوا محسنهم. . وتجاوزوا عن مسيئهم.

أما بعد :

فقد اقترض ﷺ من يهودى يوماً . . لكنه فى هذا الموقف يقترض من مسلم. . ذلك بأنه لا يريد أن يكون لأحد من الأجانب على المسكين المسلم مِنّة . . ليظل فى أمته موفور الكرامة . .

أما هو . . فيقترض لنفسه من يهودى . . صادراً عن علة شريفة هى له. . وليست عليه :

فالمسلم قد يستحى من مطالبته ﷺ بدينه . .

أما اليهودى فهو لحوح لا يكف عن طلبه من الرسول . . وكفى بذلك إنصافاً . . وعفافاً .

اليائسون
البائسون

يقولون : إن لليأس جمهوره .. هؤلاء الذين يختارون من الحياة لونها القائم . فإذا رَسَم أحدهم شجرة أو تصورها .. رسمها كما تبدو وفى فصل الخريف لا كما تأخذ زخرفها فى فصل الربيع .

إن مباهج الحياة من حوله تناديه . ولكنه يصم عنها أذنيه .. ويغمض عينيه .. وقد يَسْتغشى ثيابه حتى لا يرى .. ولا يسمع ولا يحس .. والعيب فيه .. وليس فى الدنيا !

ولكن ما هى منابع اليأس ؟ :

فى تتبعنا لجذور اليأس وصولاً إلى منابعه.. فإن دليلنا فى رحلة الاستكشاف هذه.. هو القرآن الكريم. . والذى يضع أصابعنا على بيت الداء:

يقول تعالى : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف :٨٦، ٨٧] .

إن الحزن على فلذة الكبد هنا قد بلغ بالوالد منتهاه ..

والحزن هنا : حزن .. وثان .. وليس واحدا ..

ومع ذلك فهو لم يفقد الأمل لحظة واحدة .. ووقف بمشاعره الموقف الأمثل :

أ- لقد اتجه بالهم إلى كاشف الهم سبحانه ..

ب- ثم نصح أولاده باتخاذ الخطوة العملية وصولاً إلى تحقيق الأمل :

﴿ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا ﴾

جـ - ثم دلهم على أن الكفر سبب اليأس من رحمة الله ..

فالكافرون: ساترون المعدن النفيس فى كيانهم.. وهو الأمل. ويعنى ذلك:

أن الأمل مستكن فى قلوبنا - لكن الصدأ المتراكم ران عليه .. فطمس بريقه ثم دفنه فى الأعماق ..

وإذن فنحن محتاجون - لاستخراج كنز الأمل - إلى مزيد من العمل .. من الحفر والتنقيب ..

إن الأمل موجود .. مستقر فى أعماقنا .. ولكن اليائسين «ضالون». على أعينهم غشاوة القنوط .. التى تُفقدهم الرؤية الكاشفة ..

وذلك بعض ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ . قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٥-٥٦].

وهكذا: تستُّر بالتشاؤم جوهر الأمل .. فإذا بنا نسير فى الظلام بعد أن انطفأ فينا المصباح الهادى .. فإذا بطاقاتنا النفسية والجسمية تذهب بدداً. وإذا بنا مرضى.. بينما أجسامنا خالية من جرثومة العلة.

وهكذا: يُخرب اليائس بيته بيديه ليصبح الجسمُ فاقد المناعة .. لينتهى أمره إلى بيت خرب .. بلا حارس .. أو حظيرة من غير باب.

[اليأس .. ذلك السلاح القاتل]

ومن بين القصص الرمزية ذات الدلالة العميقة:

إن الشيطان أعلن يوماً عن «مزاد» يبيع فيه أسلحته .. وتسابق الناس. لعلهم أن يفوزوا بها. ليحققوا مثلما يحققه الشيطان على أرض الواقع.

ولما أعلن عن نوعية الأسلحة فى المزاد .. لكن شيئاً لاح لواحد من المشتركين فى المزاد .. فطلب من الشيطان معرفته .. فلعله أن يشتريه .. ولكن الشيطان المريد رفض إدراجه فى المزاد لأنه أمضى أسلحته .. وكان هو: اليأس.

لقد ضَنَّ الشيطان باليأس أن يبيعه . . مؤثراً أن يظل متفوقاً عسكرياً على كل الناس بما يملك من سلاح نووى . . يقطع به ما أمر الله به أن يوصل . . منطلقاً من يقينه بأن اليائسين يموتون قبل أن يموتوا وكلما لا حت لهم بارقة من الأمل يُخمدونها . .

وما زلت أذكر دليلاً على ذلك ما روى عن أحد القواد العسكريين الأجانب : فعندما يئس هذا القائد من النصر . . طلب من أحد الجنود أن يقتله . . لكن الجندى سارع إلى قتل نفسه قبل أن يقتل قائده . . ذلك بأن عدوى اليأس سرت إليه من قائده . . فكان فيها انتحارُه .

مغزى اليأس

إن مغزى اليأس هو :

إن اليائس يتصور الله تعالى غير قادر . . وغير عليم . . وغير كريم . .

ويعنى ذلك أن اليائس يواجه المشكلة بقواه الذاتية غير مستعين بربه القادر العليم الكريم . .

وسوف يكتشف أن قواه أضعف من أن تواجه الكون وحدها . . فينسحب مهزوماً مدحوراً . . ليصير باليأس هو نفس المشكلة التى تضاف إلى أعباء المجتمع والذى رباه ليكون عوناً له على حل مشكلاته . .

من آثار اليأس :

لليأس آثاره المترامية :

من ناحية الفرد : جسمياً : فأقل ما يصاب به هو : ضغط الدم . . وإذن فهو من الهلاك على خطر عظيم :

ونفسياً : يختل مزاجه . . فتعتل كل أجهزته .

ومن الناحية القومية :لا يمكن لمن هذا شأنه أن يعمل عملاً صالحاً . .

وسوف يتراجع من الساحة غير قادر على النّتاج لا كما ولا كيفا .

ومن الناحية الاجتماعية :لن تكون له علاقات اجتماعية سوية بسبب هذا المزاج المعتل . . والجسم المختل .

حصاد الهموم :

ويكفى دليلا على خسارة اليائسين أنهم أسلموا زمامهم للخوف . . والحزن . . فأكلهم الخوف والحزن . . ولقد حرر الله تعالى أولياءه من الخوف والحزن فكانوا بهذا التحرر أسعد الناس . . وكانوا فى نفس الوقت أجدر الناس بهذه الحرية . . بما منحهم الله من إيمان . . وعلم .

فكان الإيمان هو قاعدة الانطلاق . . وكان العلم كشافاً أنار لهم الطريق .

ولذلك يحكى القرآن عن يعقوب عليه السلام ما جاء فى الآية الكريمة :

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٢].

فقد نجا المتقون بالعلم . . وتخبط الجاهلون فى تيه من الضلال :

قال رجل للحسن : يا أبا سعيد : من أين أتى هذا الخلق ؟

قال : من قلة الرضا عن الله (١).

قلت : ومن أين أُتى قلة الرضا عن الله ؟ قال : من قلة المعرفة بالله .

من أجل ذلك كان من أولى خصائص العاقل أن يجعل الرضا فى صدر القيم الفاضلة :

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : يجب على العاقل إذا كان مبتدئاً أن يلزم عند ورود الشدة . . الصبر .

---

(١) روضة العقلاء : ١٥٨.

ومن أجل ذلك قال العلماء :

{وأية سعادة تعدل سعادة الإنسان الذى تحرر من الخوف والحزن ؟ . . إن كل عذاب يهون إزاء الخوف والحزن ، وكل مصير يحتمل إزاء فتك الحزن ونذير الخوف . . إن الخائفين والمحزونين لا يقر لهم قرار ولا يتذوقون سعادة ولا يحسون طعم الحياة، إنهم ليسوا أحياء ولكنهم ميتون ، قتلهم الخوف والحزن . . إن هذا الخوف وهذا الحزن يبدآن بالأفراد ، ولكنهما سرعان ما ينعكسان على الواقع الجماعى ويعطيان للتاريخ لونه القاتم وللحضارة وجودها القلق المهزوز . . إننا نلحظ اليوم هذا الحزن وهذا الخوف على مساحات واسعة من خارطة العالم ، وهو مصير كان لابد من تحققه إزاء العصيان الذى غطى معظم مساحات الأرض .

إن المؤمنين أفراداً وجماعات ، كانوا دائماً سعداء قبل أن ينتقلوا إلى السماء ليضاعف لهم الجزاء . وقد أتاحت لهم هذه السعادة العميقة فرصة حقيقية لتجميع طاقاتهم كلها وتوجيهها وجهة بنَّاءة لتصب فى مجرى الحضارة الواسع اللانهائى . وهكذا انعكس اختيار الأفراد ومصيرهم على طريق الأمة والجماعة ومصيرهما ، فكانت الأسم المؤمنة أكثر الأمم فاعلية وإيجابية وإسهاماً فى إغناء حركة التاريخ } .أ.هـ .

الطريق إلى الأمل :

وأول خطوة على طريق الأمل : الدعاء . . الدعاء الذى يتعالج مع البلاء: والدعاء إما أن يكون أقوى منه . فيدفعَه . أو أضعف . . فيقلل من أثره . أو مثله . . فيتدافعان . .

فالدعاء سبب . . وليست المسألة اعتباطاً . .

إنه :دواء . . فلا يصح تركُه . . إلا إذا صح ترك الدواء اتكالاً على أن صحة الجسم بيد الله تعالى .

وإنّ مُسْلماً يتسلح بالدعاء فإنه يفرٌ من قدر الله إلى قدر الله . .

وأين من هذه المعانى ذلك اليائس البائس القائل : نحن نتداوى . . وبالتداوى نعمل جميعاً ضد شفائنا ؟ . .

وهو الموت . . لأن الموت هو الشفاء الوحيد من كل الأمراض .

وفى الواقع نماذج وصور :

صارح طبيب القلب النطاسى . . صارح المريضة بأن ضربات قلبها مضطربة . ومن ثم فإن حياتها على خطر عظيم .

لكن المرأة المؤمنة لم تيأس موقنة بأن الشفاء ليس إلى الحبوب . . وإنما إلى شىء وراء ذلك وهو : الإيمان بمن؟ **﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾** [الشعراء : ٨٠] .

ولقد كان الطبيب كالمريضة مؤمناً

فقد كان أمله - من الناحية الطبية - ضعيفاً - لكنه أحس بأن وظيفته أن يعين المرأة على الشفاء . . بالأمل فى رحمة الله . .

لقد ألحت عليه بأن يصارحها بحقيقة علتها . فقال لها : كم عمرك يا سيدتى ؟ فقالت : عمرى سبعون عاماً .

فقال لها : يا سيدتى : إن قلبك يشبه ذلك الشيخ الموقور . الذى يَتَرَيَّض فى حديقة غناء . ولكنه لكبر سنه . عندما يحس بالتعب . . يجلس لحظات على الأريكة . . متأملاً ما فى الحديقة من ثمار وأزهار .

وإذن . . فقلبك خلف ضلوعك . . يعيش معك نفس مرحلةِ عمرك . . فهو قلب طبيعى . . فلا داعى للقلق . .

ولقد عاشت المرأة بعد ذلك سنين عدداً . . وربما مات طبيبها . وما أكثر الآيات ولكن أين المعتبرون؟ فقد يموت الطبيب . . أما هى . . أما المريضة :

فقد مرضت خلاياها الهاجمة . . ثم ضمرت . . ثم تلاشت . . لتستأنف الحياة من جديد .

رواد على الطريق :

كان الرجل الصالح يرى جاره أغنى منه وأقوى . . ولم يكن ذلك يحزنه . . لأنه موقن بأن ثروته أمام الغنى أربى فى الميزان . . إن مُقسِّم الأرزاق هو الخلاق . . والناس فقط وسائط . . ودَوْرنا المنوط بنا أن نعمل . . والنتيجة من بعد على الله تعالى .

نزرع . . لنحصد . ونتداوى . . لنبرأ . ومن لم يزرع لم يحصد . . ومن لم يتداو لا يشفى . .

وبين يديك على الطريق رواد . . هم كما قال الله عزَّ وجلَّ :

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة : ٥٩] .

ومنهم يعقوب عليه السلام : لقد ظل قلبه رطباً بالرجاء . . موصولاً بالسماء . وكلما ازداد الخطب . . كلما زاد يقينه بالفرج . .

وهو الذى قال عندما بلغ الثمانين من عمره . . وبعد أن ضُمَّ إلى فقد يوسف . . فَقْدُ « بنيامين» قال ما حكاه القرآن الكريم عنه :

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف : ٨٣] .

وفى واد غير ذى زرع . . سَلَّمت هاجر أمرها لله تعالى الذى لن يُضيعها . . وانفجر الماء من تحت قدم وليدها .

ولأن الموقف صعب . . من حيث مصادمته لفطرة الإنسان الراغبة فيما

تشتهيه . . فـقد كان الصالحون يطلبون العون من الله تعـالى أن يلهمهم الرضا بقضائه .

كان عـمر بن عبـد العزيز - رضى الله عنه - يدعـو ربه فيـقول : اللهم رضِّنى بقضائك . وبارك لى فى قدرك . حـتى لا أحب تعجيل ما أخَّرْتَ . . ولا تأخير ما عجلت .

وعندما مات ولده « عـبد الملك» . . بكى حتى ابتلت لحيـته . . لكنه لم يفقد ذَرَّة واحدة من رضاه بقضاء الله . .حتى إنه قال لمن جاءوا يعزونه :

« أمرٌ رَضيه الله لى . . فلا أكرهه »

إن فى ذلك لذكرى لأناس يسخطون مع أن قدر الله تعالى نافذ . .

ثم يُمرضهم السخط . . وما بأنفسهم من علة . . إلا أنهم يجزعون . .

وفيهم يقول الشاعر :

أيهـــــذا الـشــــاكى ومـــــا بـك داء

كـــيف تـغـــدو إذا غـــدوت عـليـــلاً؟

إن شـــــــــرَّ الجـناة فـى الأرض نـفـس

تتـــوقى قـــبـل الرحـــيل الرحـــيـــلا

وترى الـشـــــوك فى الورود وتـعـــــمى

أن ترى فـــــوقـــهـــا الـندى إكلـيـــلا

هو عـبء علـى الحـــيـــــاة ثقـــــيل

من يظـن الحـيـــاة عـــبـئـــاً ثقـــيـــلاً

وأين من هذا اليائس البائس ذلك الشاعر الذى يتغنى بالأمل فيقول :

نعم .. جفا الزمان .. وما جفوت
وأجْدَبَت الحياة .. وما شكوت
ولكنى زرعت الحب فيها
نشيداً يانعاً أنَّى شدوت
وللشعراء أفئدة تغنى
وأخيلة : لها سمع وصوت
وبين جوانحى منهن وحى
إذا ما نمت وَهْناً أو صحوت
نعم ..ولّى الرفاق .. رفاقُ عمرى
وظنوا بى هلاكاً إذ نجوت !!
وقد عبروا الحواجز فوق جسرى
وليس لمثل ما عَجِلوا صبوت
وقد عانيت منهم ما أعانى
وما ودّعتُ نهجى أو سلوت
وإنْ ولّى زمانُ الحب فينا
وصمّ الناس عما قد دعوت
وجفّت روضة الدنيا جحوداً
ولم تَدْنُ المنى مهما دنوت
فقلبى لم يزل غضاً يغنى
وفى الأرجاء بالأصداء صيت

فكرة السرور .. فى منهج الإسلام

السرور فى الإسـلام معنى أصيـل . . متى كان ذلك على شـرط الإسلام الذى يرحب بمشاعر السرور تعمر قلب الإنسان . . بقدر ما يرفض الفرح الذي يصير غروراً وبطراً .

ومن مظاهر ذلك ما قرره علماؤنا الذين قـالوا : ينبغى إطالة زمن البشارة بالخيرْ . . بمعنى التبكير بها . . وذلك لتكون مساحة السرور طويلة عريضة . .

أما النذارة . . ينبغى ألا تطول . . رحمة بمشاعر الإنسان . .

ومن هنا لاحظوا : أنه كـان هناك زمن طويل. قدروه بعشـرات السنين بين بشارة يوسف بالنبوة. . وبين تحققها فعلا . .

ويبـقى الاصطبار فى مـواجهـة الأخطار بَسْـمَةَ المؤمن . . والذى يغـالب الأحداث . . محتفظاً ببسمته الساخرة المعبرة عن إباء الإيمان . .

الإيمان الذى ينشئ فى قلبه الإحساس بالسعادة حتى فى مدلهم الخطوب:

إنه بالإيمان يملك الإرادة القوية التى تغَير مسير التاريخ .

إن الصخـور الضخمة هى التى تغـير اتجاه الموج . والسدود العظيـمة هى التى تغير طريق الرياح .

ولا نقصـد بالسرور ذلك الشـعور المريح . . وإنما هوالسـرور تُدخله على غيرك . . فـإذا أنت بسرور الآخرين فى واحة ظليلة جمـيلة . . حتى ولو كان غيـرك هذا هو من أساء إليك ،فـأسْعـدْه بعفوك . . يُـعينك على هذا العـفو تصورك أن هناك من ظلمتَه أنت قطعاً .

فإذا دعوت على من ظلمك . . ثم دعا عليك من ظلمته . . فهل يرضيك أن يستجيب الله لكما ؟!

إن الأفضل لك .. وله .. أن تسـعكما بالعفـو رحمة الله تعـالى . فإذا أنتما معا على الطريق .

٢- ويحضك عليـه أيضاً تصورك أنك أغظت الشيطان .. وهو عـدوكما المشترك :

وعندما أراد العبد المتـمرد أن يغيظ سيده جاء بالشاة التى طلبـها سيده .. ثم ألقاها بين يديه من عَلُ .. فـانكسرت رجلها .. وتتقدم إرادة السـيد لتدير الأزمة بالصبر .. بل بالمصابرة .. فقـال لعبده وهو يعاتبه : والله لأغيظَن من سلطك .. وهو الشيطان .. انطلق فأنت حر لوجه الله تعالى !!

وكان السيد تفسيراً عملياً لقوله تعالى :

﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩] .

يقول الله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾ [الأنعام: ٤٤] .

لكن عمر بن حـبيب وهو من أعتق عبـده ... فرح .. فرح بما آتى .. بما أعطى .. بما أعتق عبده لما سبقه إلى المسجد. أما هؤلاء فيفرحون لكن .. بما يأخذون ..

إنه الفرق الهائل بين رجل يعيش لنفسه .. وآخر يعيش لغيره ..

لقد كان في ســروره ﷺ يبتسم .. ابتسامة تضيء وجـهه الشريف .. بقدر ما يَسْعد بها الآخرون ..

لكنه أحياناً كان يضحك حتى تبدو نَواجذه معبراً عن عمق سعادته بما رأى وما سمع ..

ومن هذه الضحكات ما حدث عندما حكى قصة آخر أهل الجنة دخولاً .. فأسعده ذلك سعادة عبرّ عنها بهذا السرور الغامر .

نحن .. وهم

وفى بلد من بلاد الدنيا تسير مظاهرة تتنافس في الضحك .. الضحك الفارغ الملول .. فى عملية تهريج لا تعبر عن عاطفة صادقة .. إنه الفرق الهائل بين حضارتين ... وأذكر كيف نوه زميل بموقف رجل المرور فى دولة أجنبية .. وكيف أوقف رتل السيارات حتى تعبر « أوزة» بفراخها ..

ونسَى أن عمرو بن العاص أوقف تحرك جيش بأكمله .. وعلى مدى أيام.. حتى تطير حمامة عششت فوق خيمته .. وحتى لا يزعجها .

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم　　　إذا جمعتنا يا جرير المجامع ..

[أين الثرى .. من الثريا ؟:]

إنه لا يُقارَن حق بباطل.. وإلا فمقارنة الحق بالباطل .. استهانة بالحق..

وقد ذكروا أن الفرزدق مدح الحسين بن على بقصيدة .. فقال هشام بن عبد الملك :أمْدَحنا مثلهَ .

فقال له الفرزدق : هات لك جَدًا .. كجده . وأبا .. كأبيه .. وأمًا.. كأمه «الزهراء» . فبُهت الذى سأل ؟!!

أما بعد
فكن سعيداً

وها هو ذا الأديب العربى يؤكد لكل فرد .. وفي كل موقع .. أنك تملك فى كيانك خميرة السعادة .. ويبقى أن تستشعرها . وأن نغالى بها .

قال : إذا كنت محسنا .. فكن سعيداً : لأنك ملأت الأيدي الفارغة . وسترت الأجساد العارية . وكونت مَنْ لا كيان له . فَرَضيتَ عن نفسك ووددت إسعاد مئات .. لتتضاعف مسرتك النبيلة الواحدة بتعدد المنتفعين بأسبابها .

إذا كنت شابا . . فكن سعيداً : لأن شجرة مطالبك مخضلة الغصون . .
وقد بَعُــد أمامك مرمى الآمــال . . فتيسـر لك إخراج الأحلام إلى حـيز الواقع .

وإذا كنت شيخاً . فكن سعيداً؛ لأنك عركت الدهر وناسَه. وألْقيَتْ إليك من صدق الفراسة. وحسن المعالجة مقاليدُ الأمور، فكل أعمالك إن شئت منافع.

والدقيـقة الواحـدة تساوى من عمـرك أعواماً . . لأنهـا حافلة بالخـبرة . والتبـصر . وأصالة الرأى . . كأنهـا ثمرة الخريف : موفـورة النضج . غزيرة العصير . أُشْبِعَتْ بمادة الاكتمال والدَّسَم والرغبة .

إذا كنت كثير الأصدقـاء . . فكن سعيداً ؛ لأن ذاتك ترتسم فى ذات كلٍّ منهم . والنجاح مع الصداقة أبهى ظهوراً . والإخفاق أقل مرارة .

وإذا كنت كثير الأعداء . . كن سعيداً ؛ لأن الأعداء سلم الارتقاء . وهم أضمن شـهادة بخطورتك . وكـلما زادت منهم المقـاومة والتحـامل . . وتنوعُ الاغتياب والنميمة زدتَ شعوراً بأهميتك . فاتَّعَظْتَ بالصائب من النقد . الذى هو كالسُّم : يريدونه فتاكا . . ولكنك تأخذه بكميات قليلة . فيكون لك أعظمَ المقوِّيات . . وتُعرض عمَّا بَقى . وكان مصدره الكيد والعجز . إعراضاً رشيقاً:

وهل يهتم النَّسر المحلق فى قَصِىّ الآفاق . بما تتآمَرُك خنافس الغبراء ؟!

إذا كنت حرا . . كـن مسعـيداً ؛ ففى الحـرية تتمـرن القوى . . وتشـتد الملكات وتتسع المخلفـات وإذا كنت مستعبـداً كن سعيداً؛ لأن العـبودية أفضل مدرسة تتعلم فيها دروس الحرية . وتقف على ما يصيِّرك لها أهلا .

إذا كنت محباً محبوباً . . كن سعـيداً ؛ فقد دلَّلَتْكَ الحياة . وضمَّتك إلى أبنائها المختارين . . واجتمع النصفان الـتائهان فى المجاهل المدلهمة . . فتجلت لهما بدائع الفـجر . . وهنَّأتهما الشـموس بما لم تهتد بعـد إليه فى دورتها بين الأفلاك .

كن عظيماً . . ليختارك الجد العظيم . . وإلا فيصيبك حف يسفّ التراب . ويتمرغ فى الأوحال . فتظل على ما أنت عليه أو تهبط به . بدل أن تسمو إلى أبراج لم ترها عين ولم تخطر عجائبها على قلب بشر .

ألا إن الإنســان سيــد مصيــره . . وقد وضع الله تعــالى فى يده مـفتــاح سعادته . . على أن يتحــمل مسئولية الاختيــار . . وليس فى استطاعة أحد من الناس أن يقدم إليك سعادةً لم ترغب فيها ولم تسع لها سعيها . .

إن التعــساء حقــا هم الذين يطلبون السـعادة خارج ذواتهــم . . بينما هى معدن نفيس . . مدفون فى كيانهم وفى استطاعتهم أن يستخرجوه : بالكف عن الشكوى مما أصابك . ثم شكر الله تعالى على الذى لم يصبك . .

واعلم أن الســعادة لا تَنْقُص بالإنفــاق . . بل إنها لتــزيد كلما كثــر الذين تُسعدهم من حولك . .

إن الانفعال يُحرق أعصاب الرجال حــتى قال المجربون : إن دقيقة واحدة تنفعل فيها تخسر فيها مثلها من السعادة . .

لقد هداك الله تعالى النّجدين . . ويبقى أن تقتحم العقبة . . عقبةَ السخط على قضاء الله . . إلى واحة التسليم والرضا .

الذكر : عدة النصر

ولقد كان الذكر عدة النصر . .

ومن صوره : التسبيح . . والاستغفار . . والحمد .

يقول تعالى : ﴿إِذَا جَـاءَ نَصْـرُ اللَّهِ وَالْفَـتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر : ١ - ٣].

أجل : إن التسبيح والاستغفار سبب النّصــر ابتداء . . ثم سبب دوام هذا النصر أيضاً . .

بدليل أنه ﷺ مأمور بهما عند مجيء النصر وتحققه فعلا .. وعلينا أن نقتدى به ﷺ إنك بالتسبيح .. مطيع لله تعالى .

وبالاستغفار .. تحترس من الوقوع فى المعصية لتسلم لك ساعتك هذه فلا تُحبطْ ثوابها بالمعصية وإذا كان ﷺ مطبوعاً على التسبيح والاستغفار . فلم يأمره تعالى بهما ؟ قالوا :

أ- إنه تلطف به ﷺ .

ب- ثم إن الاستغفار تواضع وهضم للنفس فهو فى نفسه عبادة .

جـ- وإذا أُمر المعصوم بالاستغفار فأولى بهذا الأمر أمته .

من الآثار السلوكية للذكر :

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا . قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ . وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه : ١٢٤-١٢٧] .

وهكذا كان مصير الذين يتخذون القرآن مهجوراً ..

لقد نسوا الله فأنساهم أنفسهم .. وكان من آثار هذا النسيان أن عاشوا فى قلق وتمزق .. تنسحب آثاره على الواقع الاقتصادى فإذا الساهون مضيَّق عليهم فى الرزق .. إلى جانب ما ينتظرهم من شقوة فى الآخرة .

أما الذاكرون .. فإن للذكر فى حياتهم أثراً يجعلهم أقرب إلى الله تعالى- والذى يُفيض سبحانه من كرمه عليها فإذا الإنسان مبارك الغدوات والروحات .. ما دام قلبه رطباً بذكر الله .

فَمَنْ عرف أن الله تعالى هو العزيز . . عزَّ به وحده عن طريق :

أ- الاستقامة .

ب- والدعاء .

ومن عرف أنه الحكيم . . رضى بقضائه .

ومن عرف أنه الحاكم . . رضى بحكمه . . ولم يجرؤ على مخالفته . ونتيجةُ ذلك كله : التسليم المطلق لله تعالى . . ثم الحياة الطيبة أخيراً .

كيف تقوى النفس :

إن التكاليف شاقة . والنفوسَ ضعيفة . .

وعلى أهمية الذكر وفعاليته فى تحقيق الانتصار على النفس . . وعلى حوادث الدهر . . إلا أنه لابد من مؤانستها فى رحلتها حتى تواصل المسير إلى أكرم مصير :

يقول ابن الجوزى فى صيد الخاطر :

[مَرَّ بى حَمالان تحت جذعٍ ثقيل . وهما يتجاوبان بإنشاءِ النغم . وكَلِمَاتِ الاستراحةَ .فأحدهما يصغى إلى ما يقوله الآخر . . ثم يُعيده . . أو يجيبه بمثله . والآخر همته مثل ذلك .

فرأيت أنهما لو لم يفعلا هذا . . زادت المشقة عليهما . وثقل الأمر . وكلما فعلا هذا . . هان الأمر .

فتأملت السبب فى ذلك . . فإذا به تعليق فكر كلٌ واحد مهما بما يقوله الآخر . وطربُه به . وإجالةُ فكره فى الجواب بمثل ذلك . فينقطع الطريق . وتَنْسَى ثِقَل المحمول .

فأخذت من هذا إشارةً عجيبة، ورأيت الإنسان قد حَمَل من التكليف

أمورا صعبة . ومِنْ أثقل ما حُمِّل : مداراتُه مع نفسه . وتكليفُها الصبرَ عما تحب . . وعلى ما تكره .

فرأيت أن الصواب : قطع طريق الصبر بالتسلية . والتلطف للنفس .

ومن هذا ما يُحكى عن بشر الحافى - رحمه الله -.

كان يسير فى طريق . . ومعه رجل . فعَطِشَ الرجل .

فقال له : نشرب من هذا البئر ؟ فقال بشر : اصبر إلى البئر الأخرى . فلما وصلا إليها . قال له : اصبر إلى البئر الأخرى ! فما زال يعلله . . ثم الْتَفَتَ إليه . فقال له : هكذا تنقطع الدنيا .

ومن فَهِمَ هذا الأصل . . علّل النفس . . وتلطف بها . ووَعَدَهَا الجميل . . لتصبر على ما قد حُمِّلت .

كما كان بعض السلف . يقول لنفسه : والله ما أريد بمنعك هذا الذى تَجبين . . إلا الإشفاقَ عليك !

وقال أبو يزيد - رحمه الله :

« ما زلت أسوق نفسى إلى الله تعالى . . وهى تبكى . . حتى سقتُها وهى تضحك !] [1] .

وما أصدق القائل :

أعلل النفس بالآمال أطلبها

ما أضْيقَ العمر . . لولا فسحة الأمل

معنى : الحمد للّه

يروى أن رجلاً صلى خلف رسول الله ﷺ . ثم قال : « **اللهم ربنا لك الحمد . حمداً زكياً . مباركاً فيه** » .

(١) صيد الخاطر :١٠٧، ١٠٨.

فلماَ انصرف رسول الله ﷺ . قال :« **أيكم صاحب الكلمة ؟** »

قال أحدهم : أنا يا رسول الله .

فقال ﷺ : «**لقد رأيت بضعة وثلاثين مَلَكا يبتدرونها : أيهم يكتبها أوّلاً**» (١)

وهكذا يأخذ الحمد مكان الصدارة بين صور الذكر جميعاً . . إلى الحد الذى تَتَنَزَّل فيه هذه الكوكبة من الملائكة الكرام . . الذين تسابقوا إلى كتابتها . . ليفوز كاتبها بجائزةِ الأوَّلية . . فَينالَ هذا الشرف العظيم .

يَروى الرازى عن عليٍ كرم الله وجهه :

خلق الله العقل من نورٍ مكنون من سابق علمه . فجعل العلمَ نَفَسَه . والفهمَ روحَه . والزهدَ رأسَه . والحياء عينه . والحكمة لسانه . والخير سمعه . والرأفة قلبه . والرحمة هَمَّه . والصبر بَطْنَه . .

ثم قيل له : تكلم . . فقال : الحمد لله الذى ليس له نِدٌّ ولا ضِدّ . ولا مِثْل ولا عِدل . الذى ذل كل شيء بعزته .

فقال الرب : وعزَّتى وجلالى : ما خلقت خلقاً أعزَّ علىّ منك . .

ثم يقول الرازى : إن الحمد لا يحصل إلا عند الفوز بالنعمة والرحمة فلما كان الحمد أوّلَ الكلمات وجب أن تكون النعمة والرحمة أولَ الأفعال والأحكام فلهذا السبب قال :« سبقَتَ رحمتى غضبى ».

قال أهل التحقيق : لما كانت هذه الكلمة - الحمد لله - فاتحةَ الشكر . . جعلها الله فاتحة كلامه . ولما كانت خاتمَتَه . . جعلها الله خاتمة كلام أهل الجنة فقال :

﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس : ١٠].

ولكن ما مغزى : الحمد لله . . . إنها ذكر تطمئن به القلوب . .

(١) متفق عليه .

ثم هى تعليم للعـبد كيف يـحمَد ربه تعـالى؟ . . وهى تدل على أن الله تعالى ثابت له الحمد وإن لم نَحْمَده . واللام فيه للاستغراق :

فله تعالى . . وحده . . كلُّ أنواع الحمد . .

لأنه سبحانه وحده الذى رباك بنعمه . . فهو وحده المختص بالحمد . . لا مَنْ قدَّم لك جميلاً هو أساساً من فيْض رحمته تعالى .

والحمد لله . . أفضل من قولنا : نحمد الله . .

لأنك بالصيغة الثانية { نـحمد الله } تكلف نفسك مالا تُطيق إذ تُعلن أنك فعلاً تَحْمد الله . . مع أن حمدك قاصرٌ عن الوفاء بحمده تعالى .

فَقُل كما علمك ربك : الحمد لله . .

الحمد لله الذى لا يُحمد على مكروه سواه .

الحمد لله . . حمدا : لا ينقُص فى الصمت عن الكلام . ولا فى النوم . . عن اليقظة . ولا فى الحزن . . عن الفرح . ولا فى المرض . . عن الصحة . . ولا فى المنع . . عن العطاء - إنه الحمد الدائم . . الأبدى .

أما بعد :

فالحمد لله . . حمَد الشاكرين شكراً : يجلب النعم . . ويحفظ النعم . . ويحمى من النقم . . شكراً لواسع العطاء . . الذى نشكره شكراً . . وإن قل . . فإنه يعطينا به من النعم . . ما جَلّ !

ألا إن الشكر . عبادة . . واستزادة : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ {إبراهيم : ٧}.

وما أكـثر الذين تُقْبِلُ عليـهم نعم الله تعالى . . فـإذا هم يسدون الطريق أمامها . . بمعاصيهم ! فتهرب منهم إلى غيرهم من الشاكرين الذاكرين .

فليحذر الذين يخالفون عن أمره . . عن ذكره . .

فى مجال التطبيق :

ولقد كان ﷺ طبيب النفوس :

يتخذ من ذكر الله شفاء لها من أسقامها :

أَلَمَّتْ بخالد – رضى الله عنه – محنة . فذهب إلى الرائد الذى لا يكذب أهله ﷺ . فاشتكى إليه ما يلاقى . فعلّمه ﷺ دعاء . فلما رطب لسانه.. وقلبه بهذا الدعاء . عادت إليه نفسه .. حتى قال : والله ما أُبَالِى أنْ أدخل على أسد فى عرينه [١] وهكذا يكون أثرُ ذكر الله تعالى بصفات جلاله وجماله.. إنه الغذاء اليومى للقلب .. والذى يمنحه الطمأنينة .

﴿ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد :٢٨] .

ومن اطمأنَّ قلبه لا يبالى من بعدُ. أَوَقَعَ على الموت أو وقع عليه الموت..

وإذا كانوا يقولون : لا تحكموا على الرجل حتى تدركوا يقين قلبه وفقد كان ومن هؤلاء الموقنين : ابنُ أدهم :

كان ابن أدهم نائماً بالمسجد يوماً .. وإلى جواره صاحبٌ له يصلى .

وكان فى المسجد عندئذ واحد من أهل الفضل .. فأبصر شيطانين خارج المسجد .. يقول أحدهما لصاحبه : ألا تدخل توسوس إلى هذا النائم !!

يعنى :أنه لم يعبأ بالمصلى . لكنه خاف .. حتى من نَفَس إبراهيم .. وهو نائم.. أن يُحرقه !!

وهكذا :

وما كل قول قيل .. علم وحكمة

وما كل أقراد الحديد حسام

---

(١) رواه أحمد .

وصدق القائل :

أكلَّ امرئ تحسبين امرءا

ونارا توقد بالليل نارا ؟!!

لقد ذهب الذاكرون .. بحقيقة الإيمان .. فخاف منهم الشيطان !

« موقف »

كان خوف الطلاب عظيماً .. وكانت رهبتهم من شيخهم آخذة بخناقهم.. فلم يجرؤ واحد منهم على أن يَمثل بين يديه فى الامتحان ..

إلا واحدا منهم هو الطالب : محمد الغزالى الذى صرخ فى زملائه قائلاً: وكان اسم الشيخ : عبد الجليل :

أنخاف من الجليل سبحانه .. أم نخاف من عبده ؟!!

ثم دخل على الشيخ الذى وفَّقه الله تعالى بين يديه .. فنجح فى الامتحان النظرى .. لأنه قبل ذلك نجح فى الامتحان العملى حين طرح خوف البشر جانباً .. ليكون خوفه من خالق البشر !!.

منشأ الجرأة :

ومنشأ القوة هنا: أن الشيطان قد انفرد بالرفاق .. ثم لاحقهم بوساوسه.. فخافوه .. لكن زميلهم راوغ الشيطان حتى وجد الحصن الآمن وهو : ذكرُ الله تعالى ..

وكان عليهم أن يتخذوا من ذكر الله تعالى ملجأ .. فهو الوسيلة المتاحة والتى لا تكلفهم إلا مجرد اللجوء إلى القوى المتين :

وقد قالوا : من بخل منكم بالمال .. أن ينفقَه .. وجَبُن عن العدو .. أن يجالده فليذكر الله تعالى ..

وما لم تكن مؤمنا بالمأمور . شاعراً بـالحاجة إليه . فلن تنفعك الذكرى : كالمخنّث :

تُذكِّره بجمال المـرأة . . وكالعجوز الشمطاء . . تذكرها بمشـهد جميل . فلا تتأثر . . بعد أن يَئسَتْ . . ولا حاجة تدفعها إلى ما تحمِلُها عليه .

أثر الذكر :

كان سلفنا الصالح يتـخذون من الذكر زادا يومياً يجـدِّدون به حياتهم . . يقولون عند كل طاعة : لا حول ولا قوة إلا بالله .

وعند كل مُلمّة :توكلت على الله . .

وعند كل تَحدٍّ :حسبى الله . .

ومن ثم كانت همـتهم متـعلقة بالثـريا : يلاحقون وسـاوس الشيطان . . بالتطهيـر . . فى مَهـرجان دائم للقبـول . . فالوضوء يغـسل الخطايا . . ومن الصلاة إلى الصلاة. . ومن الجمعة إلى الجمعة. . ثم من رمضانَ إلى رمضان. .

كان أولئك : حَمَـلات تطهيرية لُحمـتها الذكر وسَـداها . . تجعل المسلم دائماً فى مغتسـل بارد . . وشراب . .

وإذا كان طب الأبدان قد نجح فى علاج الأجسام . . فـقد فشل فيما نجح فيه الذكر من علاج النفوس والأرواح . .

من التراث

قال واحد من السلف :من قال: ربّنا ثلاث مرات. . نظر الله تعالى إليه. .

ولَماً لم يفهم المستمعون تلك المعـادلة . . رفعوا الأمر إلى الحسن البصرى - رضى الله عنه- . والذى قـال : صدق القائل . . لأن الله تعـالى يقول : ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَـمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا

سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ .﴾ [آل عمران: ١٩٣، ١٩٤] .

وبعد هذه الآيات مباشرة يقول تعالى :

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ [آل عمران : ١٩٥] .

من موانع الوصول :

وإذا وصل الذاكرون . . وألقوا عِصِيَّهم . . ثم استقر بهم النوى. إلا أن الشقة ما زالت بعيدة . . والطريقَ طويل . . وعلى جانبيه موانع تحول دون الوصول . . وصول مَنْ شَغَلَتهْم أموالهم وأهلوهم . .

ومِنْ هذه الموانع ما ذكره الفاقهون وهو : عدم تأمل العواقب . . وقالوا :

[إنما فضّل العقل . . بتأمل العواقب . فأما القليل العقل . . فإنه يرى الحالَ الحاضرة . . ولا ينظر إلى عاقبتها :

فإن اللص يرى أخْذَ المال . . وينسى قطع اليد .

والبطال : يرى لذة الراحة . . ويَنْسَى فَوَات العلم . وكسبَ المال . . فإذا كبِر فسئل عن علم . . لم يدْر . . وإذا احتاج . . سأل . فَذَلّ .

فقد أربى ما حصل له من التأسف . . على لذة البطالة . ثم يفوته ثواب الآخرة بترك العمل فى الدنيا .

وكذلك شارب الخمر : يلتذ تلك الساعة . وينسى ما يجنى من الآفات فى الدنيا والآخرة .

وكذلك الزنا : فإن الإنسان يرى قضاء الشهوة . ويَنْسَى ما يجنى منه من: فضيحة الدنيا . . والحد .

فقس على هذا . وانتبه للعواقب - بالذكر - ولا تؤثر لذة تُفَوِّت خيراً كثيراً . وصابر المشقة تحصلْ رِبْحاً وفيراً } [(١)].

الحب فى الله

يقول الله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ [مريم :٩٦] .

تمهيد :

كان الرجل المؤمن يمضى فى الطريق - فيرى من بعيد رجلاً . فيقول لمن معه : هذا الرجل يحبنى !

ويتساءل رفاقه. . . لقد حكمت فيما لا تعلمه من عواطف الرجل. . وكان يكفيك أن تدَّعى: أنك تحبه .

ولكن الرجل يرد عليهم بلهجة الواثق المطمئن :إنه يحبنى . . لأننى أحبه!

وإذْ يَعِدنا الحق تعالى فى هذه الآية الكريمة أنه سيجعل للمؤمنين فيما بينهم ودا . . فذلك مشروط بأن ترتب على الإيمان أثره وهو : العمل الصالح . . ومن الصلاح أن تحب أخاك المؤمن . . مخبراً إياه بأنك تحبه لتُنَشِّط بهذا الإعلام عاطفته فيبادِلَكَ حباً بحب . .

وأعلى صور الحب هى :حب الله تعالى أوّلاً :

١- لأنه تعالى أوجدنا .

٢- ثم أمدنا سبحانه بما به يستمر وجودنا .

---

(١) صيد الخاطر.

٣- ثم إنه تعالى كلَّفنا بما ينفعنا من الطاعات . ونهانا عما يضرنا من الآفات .

طبيعة هذا الحب

وكما يقول العلماء : لا يكفى أن تحب من كان منه الإيجاد . . ثم الإمداد . . لأنك إذا أحببت الله تعالى لإيجاده وإمداده فحسب . . فأنت مقصرٌ. فلا بد أن تضيف إلى ذلك طاعته . . لتكون جديراً بحبه تعالى .

إن كُلَّ ما يفعل المحبوب . . محبوب وكلَّ ما يأمرك به أيضاً . . محبوب

قال المتنبى :

أنت الحبيب . . ولكنى أعوذ به

من أن أكون حبيباً غير محبوب

ذلك بأن الحبَّ بمعنى وَدادة القلب . . يقدر عليه كل أحد . . لكن سعادتك لن تكتمل إلا بودادة قالبك . . بطاعته سبحانه وتعالى . وإن شئت قلت : أن تحبه سبحانه يعقلك وقلبك معاً .

جمال الحق :

إن الحب بالقلب - كما قيل - بلا قانون . أما الحب العقلى : فله قانون. بدليل أنك تحب ابن جارك . . لتفوقه . . ولكنك تَخُصُّ ولدك بالهدية مع أنه فى مرتبة تالية !

وليت جمال الحق- فى الطاعة- ليته يستهوينا كما يستهوينا جمال الحياة :

سئل عاشق عن حبه لمن يريد أن يتزوجها فقال: إنى أرى ضوء القمر على جدارها أضوأ منه على جدار جارتها. مع أن القمر واحد. . والجداران متشابهان

وليت ذلك الهيام . . يغير اتجاهه عشقاً لجمال الحق لنجد أنفسنا نحمل

قلوباً تحب الجمال على الطريقـة الإسلامية : تحب العقيدة . . فـتسترخصُ فى سبيلها الحياة. وتحب الخير . . أن يتجاوزك إلى الغير . .

حب الإنسان. . لأنه إنسان. . وإن اختلفت العقيدة . . وتناءت الأوطان.

نموذج :

ولقد كان صلاح الدين يملك قلباً من ذلك النوع :

كان بعض المتهورين يدخلون خيام الصليبين فينهبون ويقتلون . وحدث أنَّ أحدهم أخذ طفلاً رضيعاً من مهده . فوجدت عليه أمه وجدا شديداً . فجاءت إلى صلاح الدين فبكت رضيعها . فرَقَّ لها قلبه . . بل ودمعت عيناه ! ثم أمر بإحضار طفلها . . وظل واقفاً . . حتى جيء به . . ثم أرسلها معه إلى قومها معززة مكرمة. إنها قلوب صناعتها الحب . . فهى تحب حتى أعداءَها . . حتى أن واحدا من سلفنا الصالح كان يصلى من أجل أعدائه . . داعياً لهم بالهداية.

وقد ربَطت السنة المطهرة بين الحب والإيمان . . وذلك قوله ﷺ :

« **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه** »(١) .

فأنت مـؤمن . . مع إيقاف التنفيذ إن صـح التعبيـر . . ولن يكتمل ذلك الإيمان . . ولن يكون فاعلا . . إلا إذا فَتَحْتَ قلبك على كل الناس. . فى كل مكان . . فوددت لهم نفس ما تودّه لنفسك بالذات!

وقد كان ﷺ قدوة فى هذا الباب :

فعلى رغم موقف أبى سفـيانَ من الدعوة والداعى . . لكنه ﷺ . . لا يبادله عداء بعداء . . وإنمـا يرسل إليه مرة خمسَمائة دينـار لفقراء المشركين . . عطاءً إيمانيـاً يحترم آدمـية الإنســان . . صادراً فى عطائه عن قلـب ودود يبذل الحب طبعاً لا تطبعا . .

---

(١) متفق عليه.

وعلى طريقه سار الأبرار من صحابته - رضوان الله عليهم - وفى طليعتهم عبد الله بن عباس - رضى الله عنه - والذى عبَّر يوماً عن رحابة قلبه.. وعن عِمارته بالحب فقال : « إن فىَّ ثلاثَ خصال :

إنِّى لآتى على الآية فى كتاب الله عزَّ وجلَّ . فَلَوَددِت أنَّ جميع الناس يعلمون منها ما أعلم .

وإنى لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل فى حكمه . . فأفْرحُ . . ولعلى لا أقاضى إليه أبداً . .

وإنى لأسمع بالغيث قد أصاب البلد من بلاد المسلمين . . فأفرح وما لى به سائمة »(١) .

إلى جنة الحب :

قال أبو حاتم - رضى الله عنه -.

حسن الخلق : بَذْرُ اجتلاب المحبة . كما أن سوء الخلق بذر استجلاب البغضة . ومَنْ حَسُنَ خلقه صان عرضه . ومن ساء خلقُه هتَك عرضه ، لأن سوء الخلق يورث الضغائن . والضغائنُ إذا تمكنت فى القلوب أورثت العدواة.

والعداوة إذا ظهرت من غير صاحب الدين أهوت صاحبها النار إلا أنْ يتداركَه المولى سبحانه بفضل منه وعفو.

« ألا إن حاجة المرء إلى الناس مع محبتهم إياه . . خير من غناه عنهم مع بغضهم إياه » (٢).

(١) سلسلة المنهاج جـ(٢ / ٢٧) هاشم محمد على .

(٢) روضة العقلاء : ٦٥ .

رحلة إلى الماضى

تمهيد :

من الأهمية بمكان : أن نعُود إلى الماضى .. وفى أزهى عصوره .. تتملاه ممثلاً فى رموزه وكنوزه من الرجال العظام :

نفتح أبصارنا على أعمالهم .. وبصائرنا على أخلاقهم .. نرطب ألسنتنا بمأثور كلامهم .. ومنثور حكمهم .. من كل مفيد نبعث به من جديد .

فإذا الأمة ماضية : بسليقة الإقدام .. وليس الإحجام .. الاقتراب .. لا الانسحاب .. الانتعاش .. لا الانكماش .

وفى تأمل سير الصالحين إلى جانب ذلك :

فرار من الثقافات الرديئة .. والبدع السيئة .. من كل ما يعكر هذا النبع الرائق ..

وذلك ما يشير إليه علماؤنا .. الذين قالوا : من شغل نفسه بالبدعة . قلّت رغبته فى السنة. .فمن سمع الأغانى . قلّت رغبته فى سماع القرآن .. ومن شغل نفسه بالسفر سياحة .. لم يفكر فى الحج . وهكذا :

إذا أخذ العبد من غير الأعمال المشروعة بعض حاجته .. قلّت رغبته فى المشروع . وقلّ انتفاعه به .

وتأسيساً على هذه القاعدة .. فنحن مدعون إلى سفر طويل فى أعماق ماضينا .. تجلية للعبرة .. وكشفاً عن الأسوة .. فى صحبة الإمام : عبد الله ابن المبارك - رضى الله عنه -.

من هو ابن المبارك :

كان جواداً سخياً : ينفق ولا يخشى من ذى العرش إقلالاً .. وكان - مع غناه - عاشقاً للحديث الشريف :

قيل له يوماً : ألم تمل من طول البقاء فى دارك . . دارساً للحديث ؟

فقال لعاذليه :كيف أمل صحبة رسول الله ﷺ ؟. ثم . . لعل الكلمة التى سأنجو بها. . لم أقلها بعد !

ومع هذا : فلم يقف جوده عند بذل المال . . ولا علمه عند الشرح والتحليل . . ولكنه جاد بأعز ما يملك : روحه . . روحه التى حملها على كفه مجاهداً جسوراً . . مخلصاً . .

ومن إخلاصه : أنه كان يجاهد ملثّماً . حتى لا يعرفه أحد . .

وقد أعجب به رجل يوماً . . وهو يجاهد الكفار . . فكشف الغطاء عن وجهه . . فما كان من ابن المبارك إلا أن عاتبه . . لأنه فضحه !؟

ولك أن تتصور «ابن المبارك» حركة دائبة لا تتوقف . . وهو واحد من مدرسة يقول قائلها : أثقل الساعات علىّ . . ساعة آكل فيها !!

ابن المبارك . .

الرائد الذى لا يكذب أهله

هكذا كان ابن المبارك عظيماً فى جهاده . . وجوده . . وعلمه . . كان يجاهد عاماً . . ويحج عاماً . .

ولم يكن حجه . . سياحياً . . ترفيهيا . . ولكنه كان فيه مصلحاً جتماعياً كان يخرج مع الموكب الذاهب إلى الحج . . من اليوم الثالث من شوال . . طبق خطة الرحلة . والتى تتلخص فيما يلى :

١- كل حاج يدفع من جيبه : الواجد . . والفاقد . . الكل فى الدفع سواء .

٢- يضع كل ما أخذه فى خزانته .

٣- أثناء الرحلة : يأكل الجميع من طعام واحد . . وفى وقت واحد . إلا

رجلاً واحـداً هو ابن المبارك نفسه . . والذى يمـر عليهم متفـقداً . . ثم لا يتناول طعامه إلا أخيراً .

وهكذا القائد الإنسان . يطمئن على جنوده أولاً . .

٤- ثم . . وبعد العشاء . . يكون الغذاء الروحى :

إنه ينقلهم بدروسه من الأرض . . إلى قيم السمـاء . فكانت دروسه تنقية للنفوس من أوشابها . . حتى تكون مستعدة للتعامل مع جو الحج الطهور.

العلماء .. والأمراء
معا .. على الطريق

كان من دعاء الصالحين :

اللهم أصلح لنا ولاة أمورنا . . وأصلحنا لولاة أمـورنا . ذلك بأن صلاح الحاكم والمحكوم مؤدٍ إلى صـلاح الأمة كلها . . والتفرغ للعـمل الجاد لها . . بدل بذل الطاقة فى التنافـر والتنابز . . فإذا كان المحكوم عالمـاً . . فإن ثمرات الوفاق ستكون أزكى . . من حيث كان اتحـاد الأمراء والعلماء مدخلاً إلى عزة أمة انسجمت عناصرها المؤثرة والتى تتساند ولا تتعاند .

نذكـر هذا . . ونحن نرى بعـين خيـالنـا موكـب ابن المبـارك يدخل مكة المكرمة: لقد سبـقه الرشيد إلى هناك بموكبه الضـخم الفخم . . ولكن الرشيد يذهل من موكب العالم الذى كان على أوفى ما يكون الوقار والجلال . .

ولكن الخليفة المؤمن لا يحقد عليـه . . ولم تأخذه عزة الخلافة بالإثم . . بل قرر أن يضـيف من جلال الشيخ إلى حســابه . . حين قرر أن يستفـيد بابن المبارك فى تدعيم ملكه . .

لقد استبعـد الخليفة الحسد المدمر . . حتى لا يدير معـركة تنزف بها دماء الأمة فى دوامة التنـافس المحموم . . لقد صمم على أن يـكون عزّ ابن المبارك

عزًا له . . والقلوب الملتفة حوله . . تميل إليه وتقبل عليه . . جزاء إكرامه للشيخ . .

وليس بالضرورة أن يكون من مقومات العالم . . مقاومته للحاكم . . ولا أن تكون مميزات المحدث على قدر هجومه على السلطة القائمة . .

لكن الحكم على هذا أو ذاك . راجع إلى توفير جو من الانسجام . بين الطرفين . . فراراً من فتنة تنتهى حتماً بهزيمة الاثنين .

الحاكم . عند حسن الظن به

أراد الحق تعالى أن يوضع إخلاص الخليفة على محك الاختبار . . فكان من تدبيره تعالى أن يحْدُثَ جفاف . .

وعلى الفور . . أمر الخليفة أن يكون الإمام فى صلاة الاستسقاء . . «ابن المبارك» . . إيمانا منه أولاً بورعه وتقواه . . وثانياً : استجابة لمشاعر المسلمين المتعلقة به . . والراغبة فى إمامته . .

وتقدم ابن المبارك . . وأمّ المصلين . ثم دعا بدعاء علىّ - رضى الله عنه - .

«اللهم : قد يبست جبالنا . واغبرت أرضنا . وهامت دوابنا . وتحيرت فى مرابضها . وعجت - ارتفعت - عجيج الثكالى على أولادها . وملّت التردد فى مراتعها . والحنين إلى مواردها . اللهم فارحم حيرتها فى مذاهبها .

اللهم خرجنا إليك حين اعتكرت علينا السنون . . فكنت الرجاء للمبتئس . والبلاغ للملتمس .

ندعوك حين قنَط الأنام . ومُنع الغمام ؛ ألا تؤاخذنا بأعمالنا . ولا تأخذنا بذنوبنا .

اللهم سقياً منك تَعشَب بها نجادنا . وتجرى بها وهادنا . وتُخصب بها جنابنا - نواحينا - . فإنك تنزل الغيث بعدما قنطوا وتنشر رحمتك . وأنت الولى الحميد » .

وعندئذ . . تطلعت القلوب إلى تحقيق أملها في المطر . . لكن المطر لم ينزل . وخيم على الناس حزن عميق .

سِرّ الله .. في أضعف خلقه

وكانت المفاجأة الكبرى . . عندما التفت ابن المبارك . . وهو في دوامة شجونه . . فأبصر فتى أسمر . . يتعلق بأستار الكعبة . ثم يدعو بهذا الدعاء:

« اللهم إني لا أسألك لنفسي . . فإني لا أخشى الموت ظمآن. ولكني أسألك :للطفل الرضيع . والحيوان الجائع .والأرملة البائسة . . هم عبادك يا رب . . وقد قصدوا حرمك . ووافَوْا ساحتك ».

عندئذ بكى ابن المبارك . . واتجه صوب هذا الفتى . .والذي اختفى بين الزحام . . ثم . . أمطرت السماء !!

رجالا يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا

وقد أسرع الناس إلى ابن المبارك مبتهجين مهنئين . . ظانين أنها بركة ابن المبارك . .

ولكنه ذكر لهم أن ذلك ببركة هذا الفتى الأسمر . . والذي حاول رؤيته في اليوم التالي . . ثم كرر المحاولة دون جدوى . .

من جوانب العظمة
في شخصية ابن المبارك

إذا كان هناك ناس مزوَّرون : يفرحون بأفعالهم . . بل ويحبون أن يحمدهم الناس بما لم يفعلوه . . فإن لله تعالى رجالاً ينسون ما يفعلون من الخير . . راجعين بالفضل لأهله . . وفي مقدمتهم ابن المبارك - رحمه الله -.

وفي الصنف الأول يقول صاحب الظلال :

«نموذج الرجال الذين يعجزون عن احتمال تبعة الرأى . . وتكاليف العقيدة . فيقعدون متخلفين عن القتال .

فإن غُلب المكافحون وهزموا . . رفعوا رءوسهم وشمخوا بأنوفهم . ونسبوا إلى أنفسهم التعقل والحصافة والأناة .

أما إذا انتصر المكافحون وغنموا . . فإن أصحابنا هؤلاء يتظاهرون بأنهم كانوا من مؤيدى خطتهم . . وينتحلون لأنفسهم يداً فى النصر . ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا .

إنه نموذج من نماذج البشرية يقتات الجبن والادعاء .

نموذج يرسمه التعبير القرآنى فى لمسة أو لمستين . . فإذا ملامحه واضحة للعيان . وسماته خالدة فى الزمان . . وتلك طريقة القرآن» (١)

وحين نطالع الجمال . . جمال الاعتراف بالحق ونسبته إلى أهله يتمثله ابن المبارك رحمه الله . . فإن إعجابنا به ليزداد عمقاً . . واتساعاً : وهو درس للدعاة اليوم :

فإذا كان هناك من هو أقل منى : سناً . . ورتبة . . ثم حقق الله الخير على يديه . . فليكن سرورى بذلك معادلاً لسرورى لو تحقق الأمل على يدىّ . .

إن هذا الذى حقق الله أملنا على يديه . . يسير على ذات الطريق . . إلى نفس غايتى التى أريدها . . وإذن . . فمجهوده تدعيم لمجهودى وليس مناقضاً له . .

وإلا . . فإن تصور الحق حكرا علىّ وحدى . . مناقض لطبائع الأشياء . . وهو نضح قيمة عفنة ذكرها القرآن الكريم فى قوله . واصفاً خلُق المعاندين الحاقدين القائلين ما حكاه عنهم :

---

(١) تفسيرسورة آل عمران الظلال سيد قطب.

﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ..﴾ [الأحقالف : ١١].

لقد آمن ابن المبارك بحكمة الله تعالى .. ومن أجل ذلك رضى بحكمه تعالى ..

ومن حكمته أن يجرى الخير على يد من يبدو أقل منه .. فقد يكون فى المفضول ما ليس فى الفاضل ..

ويا ويل أمتنا من هؤلاء الذين لا يرحمون .. ولا يريدون لرحمة الله تعالى أن تنزل ..

الذين يريدون الخير حكرا عليهم .. أما من غيرهم .. فلا .. وليس ببعيد عنا ما كان يقال :

الاستعمار على يد فلان . خير من الاستقلال على يد علان !!

إن جهود الدعاة مضمومة إلى بعضها .. تشكل فى النهاية صرحا مُمَرَّداً قائماً على أصوله ..

بقدر ما يكون التنابذ والتناحر بعثرة للجهود الكبيرة والصغيرة معا ..

فى وقت يحاول اللصوص فيه التجمع .. على حساب تفرقنا ..

ومن خيانة الأمانة أن نمكنهم من رقابنا .. وباختيارنا ..

من خداع النفس

وما أكثر ما تضحك علينا أنفسنا .. حين تملى لنا أننا الأفضلون دائماً .. دون اعتبار لغيرنا ممن هم فى الواقع أفضل منا ..

ومن خداع النفس : أنك قد تمدح إنساناً فى مجلس ما .. لكنك .. سرعان ما تنقبض .. ويتلون وجهك .. حين ينبرى واحد فى مجلس يمدح من تثنى عليه .. ليمدحه .. بما لا تعرف أنت من فضله

ولكن .. لماذا تغيرت وتحولت .. لما أمسك غيرك بطرف المديح ؟

إنك :

أولاً : تريد أن تنفرد بالحديث عنه لتثبت أنك منصف. فأنت فى الحقيقة تمدح نفسك .

وثانياً : فإذا تحدثت .. كان ذلك بالقدر الذى تسمح به نفسك أنت .. بلا زيادة من أحد.. حتى تظل.. وحدك..سيد المجلس .. أو سيد الناس؟! لأنك تتصور أن مدحه مخصوم من حسابك أنت ..

ولقد كان موقف ابن المبارك مثالياً .. مؤكداً للناس أن تقدير المواهب حساب يضاف إلى رصيد الأخلاق .. ودم جديد يتدفق فى شرايين الأمة ..

وقد كان من الممكن أن يركب الموجة مع من تصوروا أن المطر نزل بسببه.

ولكن .. كانت له فى رسوله الكريم ﷺ أسوة حسنة لما مات ولده إبراهيم :فلقد كسفت الشمس عند وفاته .. ورجع الناس ذلك الحدث إلى وفاة إبراهيم ..

ولكن الرسول ﷺ ..يحق الحق ويبطل الباطل..مؤكداً بركة الصدق.. وإن بدا أنه يضرك.. وفساد الباطل .. وإن بدا أنه ينفعك .. فقال .

«إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله:لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته»[1] .

لقد سعد ابن المبارك بهذا الفتى الذى حقق الله بسببه أمل الأمة .. منطلقاً من تواضعه الجم .. وعلمه اليقينى بأنه :عبد لله :

ومهما عبد الله تعالى فلن يوفيه نعمة واحدة أنعمها عليه تعالى .. وهو لم يأخذ عهداً مع الله سبحانه أن يحقق دعاءه .. كما أراده ولو بكى ابن المبارك .. حتى سقطت عيناه .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

ولو رفع يديه إلى السـماء .. حـتى تجمدت يداه .. ولو ركـع .. حتى انحنى ظهره . ولو سجد .. حتى التصقت جبهته بالتراب .. بل لو أكل من هذا التراب ما وفى بعض حق الله تعالى عليه .

ومن أجل ذلك .. كان راضـياً بما حدث .. ورب أشعث أغبـر لو أقسم علي الله لأبره ..

ثم إن لحظة الهـداية والتـوفـيق. .لا تدرى مـتى تكـون. .وعلى يد من تكون؟..

وينبغى ألا تغـرنا الأسماء اللامعة - على مـا تملك من علم وإخلاص .. ولا بد من المراجعة .. كما راجع سليمان عليه السلام أباه فى قضية الحرث.. وكان الحق علـى لسان سليمـان .. على لسان الجـيل الجديد .. الذى أسـعد بتوفيقه .. قلوب الجيل القديم !

فى دار العبيد

أرسل ابن المبارك رجاله فى إثر الفتى .. فرأوه يدخل دار العبيد .. الذى يتاجر فيهم « ميمون الأشدق » .

قال ابن المبارك لميمون : أين عبيدك ؟

فعرض عليه عبيده .. وسأله ابن المبارك « ميمون » هل بقى منهم أحد ؟

قال : بقى شاب .. أهوج .. أحمق .. لا نفع فيه ..

قال ابن المبارك : ولكنى أريد أن أراه !

فلما جىء بـه .. إذا هو الفتى الذى يريد .. والذى دعا الـله تعالى .. فنزل الغيث !

وساوم ابن المبارك عليه. .لكن ميمون قال له: خذ سواه. .فهو ذو ريبة ..

لكن ابن المبارك اشتراه . . ثم قال له : أعتقتك . . فانتظرنى بمكانك بالحرم .

فقال الفتى لابن المبارك : إن كنت قد أعتقتنى . . فدعنى حرا . . أنتظر أو لا أنتظر !! ألقاك كما أريد !!

فقال له ابن المبارك : ما تراه !!

فانطلق الفتى مسرعاً .

ميلاد إنسان

ولد الفتى من جديد . . وعلى يد ابن المبارك ﷺ . . لقد كان بين هذا الفتى وبين الله تعالى سريرة . . كان من بركاتها نزول المطر غيثاً مدراراً . .

وما أكثر الكفايات الغائبة فى زحام الحياة . . لكنها فقط تحتاج إلى رائد مصلح ينقذها من براثن العبودية . . وقبل أن تحطم ملكات الخير فيها . .

وكان ابن المبارك واحداً من هؤلاء المصلحين . . الذين حرر الله تعالى على أيديهم ذلك العبد المؤمن . . والذى كان يعيش تحت رحمة ميمون الجشع . . المفترى . وفى بيئة يتحكم فيها الفجار . . لقد حافظ علي عقيدته . . فخرج . . أو أُخرج من البيئة الفاجرة بقلب طاهر . . وعقل حُرٍّ .

وهكذا النخلة : تمتد هامتها فى الفضاء . . بين المقابر . وبينما جذورها تمتص من دماء الموتى . . لكن فطرة الطهر فيها تحول الرميم . . كيماوياً . . إلى عزة وإباء .

لقد تحول العظم . . إلى نواة . وصار رميمها ثمراً حلواً . . تماماً . . كما صار الفتى بالحرية خلقاً آخر . .

إن الإنسان وسط الذئاب المتوحشة . . والسباع الباطشة لا يستسيغ . . بل لا يستطيع أن يعيش فيها . .

لكن العظماء من الرجال يستعلون عليها - وإن كان لها أثر ما - فيظلون محتفظين بكبريائهم . . فلا تفرض عليهم البيئة ما لا يريدون . .

ولن يكون الإنسان كذلك . . إلا إذا وجد فى الأمة هذا الطراز المتخصص فى إنقاذ المواهب من أعدائها . .

ومن هذا الطراز : عبد الله بن المبارك . . والذى كانت شيبته : زبدة . . مخضنها الأيام . وفضة . . سبكتها التجارب . يضىء له شعره الأبيض . . مسالك الطريق . . فأبصر على سناه تلك الموهبة التى حررها . . فقدم إلى الوطن هدية هو أحوج ما يكون إليها :

إن المشيب رداء العقل والأدب

كما الشباب رداء اللهو والطرب !

تحرر السادة .. قبل تحرير العبيد!

ولكن ما زال فى الموقف أسرار تغرى بالبحث والنظر :

فقد تحمل ابن المبارك مرارة الموقف . . حين رفض الفتى أن يستجيب لرغبته . . التى من أجلها حرره . . وفى نفس اللحظة . . ذلك بأنه إنما حرر الفتى . . لله . . وليس إرضاء لغروره . . لقد كان مؤهلاً بأريحية تسع هذا الموقف المتصلب من قبل الفتى . .

وما كان لهذه الأريحية أن تحرره من يد «ميمون» ليصير عبداً لابن المبارك . .

لقد تحمل ابن المبارك مسئولية الموقف . . راضياً . .

ولم يكن عجباً أن يفعل ذلك . . لكن العجب أن يكون غير ذلك :

تعجبين من سقمى ؟ صحتى هى العجب !!

أما عن إباء الفتى :

فقد بهرنا بالحقيقة التى تسيطر على العقول بصدقها .. وتأسر القلوب بجمالها ..

لقد أذن مؤذن الحرية .. فاستيقظ .. {وصاحت دِيكةُ الفجر تطرد بقايا النوم من عيون الزهر} .

{لقد نبتت له بالحرية أجنحة النسر .. الذى حلق ليضرب فى كبد السماء مشرِّفاً يحدق فى عين الشمس .. ثم سار على درب المجرة . الذى فرشت أرضه بالنجوم} .

لقد استشعر معنى الحرية .. والحرية منذ اليوم سلاحه فى معركة التعمير ..

ولن يتنازل عن سلاحه بعد ما تمكن منه .. لأن اليد العزلاء لا ينتصر بها حق . ولا ترتفع بها راية .

ثم رفض الحرية المشروطة والتى يراد لها أن تكون منحة لتصير من بعد محنة ! ..

لقد تحرر ابن المبارك من هتاف فى نفسه .. ومن إسار هواه .. فكان مؤهلاً لتحرير فتى .. كان هو أيضاً مرشحاً .. لهذه الحرية التى صار جديراً بها وأهلها .. إنه الإيمان الذى يصنع الرجال :

لقد حرر بعض الأغنياء فى دولة كبرى .. بعض العبيد .. لكنهم عادوا إلى أسيادهم فى اليوم التالى .. لأنهم لم يتحملوا مسئولية الحرية .. التى نهض بها فتى مغمور .. لا يعرفه الناس .. لكن رب الناس يعرفه !

ميمون ينتهز الفرصة :

لما رأى ميمون ذلك الفتى يتمرد على من حرره .. انتهزها فرصة ليقول

لابن المبارك :قلت لك إنه أهوج . وذو ريبة . . فلم تصدق !

فصاح ابن المبارك :كفَّ يا رجل عنه . . فأنا أعرف مكانته من ربه . وقد شاهدت منه ما شاهدت . .

فقلب التاجر يديه . ثم قال له :إن لم تصـدقنى . . فاسأل «زيتونة» فهى تحكى عنه ما تعلم ! وسأله ابن المبارك : ومن زيتونة ؟

قال : جارته هنا بدار الرقيق .

ونذكر هنا . . ما قاله الحكيم عندما سـئل : ما هو أثقل من وقوع السماء على الأرض قال: ظلم البرىء ! ولقد كان الفتى واحدا من هؤلاء المظلومين. .

لكن الحق تعالى لا يجعل للفساق علي الأبرياء سبيلاً . . الفساق : الذين ينتهزون الفرص . . موظفين كل إمكاناتهم فى تلويث سمعة الأبرياء . .

ولكن الحق تعالى يقيض لعباده المظلومين ما يرفع من شأنهم . . ويرد كيد الكائدين إلى نحـورهم . . على نحو يـفرض على كل مظلوم ألا يقطع حـبل الآمال فى نصر قريب . .

لقـد دبر الحق تعـالى ذلك الموقف . . ليـخرج الفـتى من الظلمـات إلى النور. . ثم ليقف إلى جانبه شيخ العلماء فى عصره .

خير الخطائين :

وجاءت زيتونة تمشـى على استحياء . . وهى تبكـى . . وخلا ابن المبارك بها . . مع ميمون التاجر . . ثم سألها : ما شأن هذا الشاب معك يا أمة الله؟ فقالت : أنا تجنيت عليه . وافتريت الباطل : فلقد وقع هواه فى قلبى . . فلم يعد فيه سواه . . فانتهزت فرصة خلا بها فى مكان منعزل . وهرعت إليه أقبله دون مقدمه ! فصفعنى على وجهى . وصرخت من الألم . ودوّى الصوت. . فتجمع القوم . وأقبل سيدى ميمون. فأردت أن أنقذ نفسى فقلت: إنه راودنى

فأبيت. فلطمنى . وسكت الشاب ولم ينطق. فصدّق سيدى ما زعمت!! ولم أزل ناقمة على نفسى. أتلمس الطريق لاسترضائه. حتى فوجئت الآن بعتقه وفراره: هو برىء . . وأنا المريبة !!

قال ابن المبارك : كم ثمن هذه يا ميمون ؟

لقد صدقت القول . . فلابد أن تعتق . وعندى من سيتزوجها فى ركب خراسان . . إذا رضيت . . فهيا يا ابنتى !!

نصرة المظلوم

عندما انتهز ميمون الفرصة للحط من قيمة الفتى . . كان الحق على لسان زيتونة وابن المبارك . . الذي وقف إلى جانب المظلوم ينصره . . بما يملك من أدلة على براءته مما نسب إليه . . بل إنه نصر الظالم نفسه بما كشف عنه من دلائل تكف لسانه عن مواصلة الافتراء . . وما أكثر الذين نظلمهم . . فنفترى عليهم الكذب . .

وما أحوج الأمة إلى شجاعة الدفاع عن المظلوم . . الذى نجعل منه بالإنصاف عنصراً فعالاً . . يأخذ موقعة فى خدمة دينه وأمته .

ثم ما أحوج الأمة إلى « شجاعة الاعتراف بالخطأ » مشفوعة بالعزم على التوبة النصوح . . وكذلك كانت زيتونة . .

وما أحوج المظلوم إلى الدفاع عن نفسه . . قبل أن يغرق فى طوفان الادعاء والافتراء . . فلقد سكت الفتى لما رمته زيتونة بدائها . . فركبته التهمة . . وفتح على نفسه باب الظنون . .

وكان الظن أن يهب ليرد التهمة الباطلة . . كما ردها يوسف عليه السلام عندما قال فيما حكاه القرآن الكريم عنه

﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ [يوسف :٢٦]

سلامة
إجراءات التحقيق

ولاحظ من فقهه :

أولاً : أنه لم يستنطق « زيتونة » على ملأ من الناس .. فقد يعقد الخجل لسانها .. وتظل الحقيقة خافية .. ومن ثم .. قرر الاجتماع بهما منفردين .. ضماناً لسلامة إجراءات التحقيق .

وثانياً : لما جاءت الأمة تبكى .. لم يفاجئها بالسؤال .. وهى فى دوامة الانفعال .. لأن قوة الانفعال مانعة من اعتدال المزاج .. فيعتل الكلام..

وثالثاً : قرر مكافأة المرأة على شجاعة الاعتراف .. وفضيلة الإنصاف .. فاشتراها ثم أعتقها .. مما يحملنا على أن نقول : إنها « غُدَّة » المروءة التي تفرز القول جميلا .. والعمل جليلا ..

غدة شيمتها العطاء .. تضيف كل يوم جديدا .. بلا زهو .. وبلا ادعاء

وهو درس يحمل الأغنياء مسئولية البحث عن المواهب واستثمار ملكاتها .. ليأخذوا سمتهم العملى .. فيجوسوا خلال الديار .. وإنهم لواجدون من المواهب المطمورة ما يكون إحياؤها إحياء للأمة .. وتجديدا للدم فى شرايينها .

زيتونة .. المرأة الشريفة

ويفتح المجتمع ذراعيه لزيتونة .. الأمة الشريفة .. لتأخذ مكانها تحت ظل زوج يسعد بها ..وتسعد به ..

ويسدل الستار على ماضٍ تولى .. لتستأنف حياة جديدة على تقوى من الله ورضوان ..

ولاحظ من حكمة ابن المبارك : أنه لم يعتقها فقط . . لكنه أحس بالفراغ الذى يمكن أن يحتويها لو لم تجد الصاحب المعين . .

وفرارا بها من معاطب الانطلاق . . أراد تحصينها بالزواج . . ومن تكريمه لها أنه لم يفرض عليها زوجا . . لكنها لو أرادت . . فإنه سيختار لها ذلك الزوج . .

وهكذا يستقبل المجتمع فتى . . وفتاة . . كان كلاهما من قبل رهين السجن . . واليوم . . ينطلقان بمواهبهما التى كانت معهما حبيسة إلى الساحة الكبرى . . ليرد إلى المجتمع جميلاً . . لا ينسى . .

ويبقى بعد ذلك درس فى مخاطر الاختلاط :

لقد خلا الجو . . فكان سببا فى هجمة الفتاة على الفتى . . وكان ما كان . . ولولا الخلوة . . ولولا الاختلاط . . لما حدث ذلك . . لقد اجتمع الرجل والمرأة . . فكان الشيطان ثالثهما . . وإذ يتجاهل أناس ذلك الخطر . . مهونين من شأنه محسنين الظن . . حيث لا مكان للحسن هنا . . إذ يفعلون ذلك . . فلسنا على استعداد أن نصدقهم . . ثم نكذب الواقع الصارم المبين !!

وما أكثر التائبات توبة نصوحاً . . الراغبات فى عود حميد إلى الأسرة الكبيرة . تحت مظلة الطهر والعفاف . . أجل ما أكثرهن . .

ولكن ناسا يقفون فى طريقهن . . جاعلين من أنفسهم أصحاب جنة ما أقامهم الله تعالى حراساً عليها . . وإنهن لأحوج ما يكون إلى :

قلب واسع كقلب ابن المبارك . . يستقبل العائدات بهذا القلب المفتوح . . حتى تتحول إرادة المتعة الحرام إلى غرام بالعمل الخيرى . . تكفيراً عن الماضى . . وإعماراً للمستقبل . . حتى لتتمنى المرأة عندئذ أن لو كان عمرها أعماراً . . تستحيل بها الحياة جنات وأنهاراً .

برّ التلاميذ

عرف ابن المبارك أن شيخه المحدث حماد بن زيد قد سأل عنه ، ويطلب لقاءه بعد أن يحضر من دار ميمون ، وهو مقيم بالحجون مع صفوة من تلاميذه، فَدهِش عبد الله - إذ كان لا يعرف أن أستاذه بين حجاج هذا العام - وقال متحسراً : يسأل عنى شيخى ، ويحضر إلى مخيم خراسان للقائى ، وأنا غافل عن تأدية واجبه ، وهو الشيخ الكبير وأنا التلميذ الصغير ! كيف هذا ؟! لن أهدأ حتى ألقاه .

ثم اتجه إلى الحجون فى مخيم الكوفة فوجد شيخه حماداً يجلس صامتاً بين تلاميذه . . وحين رآه خف إلى لقائه فتعانقا على شوق ، وقال الأستاذ للتلميذ مداعباً : أحضر إلى مخيم خراسان فأجد عبد الله بن المبارك يترك مناسك الحج ، ويذهب لشراء الجوارى والغلمان ، لقد تغيرت بعدى يا ابن المبارك ! .

قال عبد الله : إن أذن شيخى اعترفت له بأنى كنت أنشد شاباً نشأ فى عبادة الله ، وقد رأيت منه ما أسعدنى ، وحاولت شراءه كى أعتقه ثم انصرف عنى بعد أن خيب رجائى !

نظر حماد حائراً وقال : أى رجاء لك فيه ، ولن يبلغ مبلغك من الفقه والحديث ؟

ولاحظ فى الموقف ما يلى :

١- الأستاذ هو الذى يسأل عن التلميذ ذاهباً إلى حيث يقيم . . لكنه لم يجده . . فلم تأخذه العزة بالإثم . . حين عاد . . دون أن يراه .

٢- يخف التلميذ للقاء أستاذه يعتصره الألم . . مع أنه لم يعرفه بحجه هذا العام .

٣- فلما التقيا تعانقا في شوق . . وأمـام بقية الركب الذى يشاهد درسا عملياً في علاقة الأستاذ بالتلميذ . .

٤- ثم كانت هذه الدعابة الحبيبة من الأستاذ . . الدعابة التى تختصر المسافة بين الجيل القديم والجيل الجديد . . بعيدا عن التجهم المانع من الانسجام بينهما . . وبالتالى من تحصيل الفائدة . .

٥- وإذا بلغ الاحترام المتبادل بين التلميذ وأستاذه أن التلميذ لم يكن يطرق الباب على شيخه إلا إذا طلع من بيته . . وبإرادته . . إذا حدث هذا فإنّ نحمد للأستاذ هنا إصراره على أن ينوب عنه التلميذ . . والتلميذ النجيب في إلقاء الدرس . . معتزاً به . . اعتزازاً تتواصل به الأجيال . . حين يحس الأستاذ بالسرور أن يرى صنع يديه . . يتحدث . . وبطلاقة . . ولا بأس . . فهو بعض عمله . . وثمرة غرسه . . ومن ثم . فهو سعيد به . . فأقبل عليه .

٦- وحين يتساءل الأستاذ عن جدوى البحث عن عبد مضى لسبيله . . وماذا عنده من علم إلى جانب ابن المبارك العالم الفاضل . . حين يتساءل الأستاذ هكذا؟ . . لا يجد التلميذ غضاضة في لفت نظر أستاذه إلى أنه لا يبحث عن العلم . . فالعلم في الكتب . . وإنما يبحث عن الخلق . تمثله عبد بغيب . . ولا يعرفه أحد ! - كما سنذكر بعد قليل- ولكن ربه تعالى يعرفه !

قال عبد الله بن المبارك لشيخه : لم أختره لفقه أو حديث ، ولكن ليكون زوج ابنتى فلن أجد تقياً ورعاً أحب إلى الله منه . . ومضى يذكر ما كان من أمره منذ عرفه إلى أن انطلق دون أن يعلم مثواه .

فقال حماد - بعد أن عجب الحاضرون من حديث ابن المبارك : وهل سترضى فتاتك بشاب أسود كان رقيقاً بالأمس وحرر على يدك؟ ، فتبسم ابن المبارك ، وقال : هى تعرف قصة زواج والدى الفقير بابنة تاجر مرو الموسر وهو لا يملك الصداق !

قال عبد الله : كان أبى (ناطوراً) يحرس بستان التاجر فى مرو ، فجاء صاحب البستان يوماً فأمره أن يقطف له رمانة حلوة ، فذهب وجاء برمانة ، فذاقها ، ثم رماها ، وقال : حامضة ، فأحضر سواها ! فذهب وأتى بثانية. فذاقها فإذا بها حامضة ، فصاح به : أريد رمانة حلوة ، فقطف ثالثة ، وأتى بها . . فوجدها كسابقتيها ، فصاح به : ويلك . . أما تعرف الحلو من الحامض؟ فقال أبى : وكيف أعرفه وأنا لم أذقه . . فقلَّب كفه ، وهو يقول : بقى لك فى البستان ست سنوات ، ولم تذق منه شيئاً ؟ فقال أبى : نعم لأنك لم تأذن لى فى أكل شىء . . فجعل أبى يسأل مجاوريه : هل شاهدتم الأجير يأكل مرة من فاكهة البستان ؟ فقالوا : ما رأيناه يأكل غير كسرة الخبز وبعض الإدام مما يباع ! وكان للتاجر ابنة كثر خطابها، وكلهم طامعون فى ماله فقال لوالدى: اسمع يا بنى . . أهل الجاهلية كانوا يزوجون للحب ، واليهود يزوجون من أجل المال ، والنصارى للخفة والجمال ، وهذه الأمة تزوج للدين. وقد رأيتك ذا دين وخشية ، فأنت أحق بها وأجدر ، ثم ذهب إلى منزله ، وتم القران ، وواظب أبى على حراسة البستان ، فلم يأكل منه شيئاً بادئ الأمر ، فقال لوالدى ضاحكاً : أتمتنع عن مالك ؟ ! قال أبى : لم تأذن لى بعد ، فقال التاجر ، قد أذنت منذ اخترتك قريناً لابنتى ، فكل ما تشاء . .

قال حماد : قصة عجيبة ، وأعجب منها أن يرويها ابن المبارك صاحب الجاه الممتد فى العلم والثراء والشجاعة ثم لا ينقص منها حرفاً !! .

وفاء بوفاء

إنه وفاء الحارس الأمين . . يتوَّج بوفاء صاحب البستان !

الحارس الأمين الذى يعرف أن درهماً واحداً حراماً . . يدمر ألفاً من الحلال ! والمالك الذى يختار لابنته . . من يسعدها بخلقه وإن كان من السلم الاجتماعى فى أدنى درجاته ! خادم . . نعم . . ولكنه صالح . . مصلح . . وأنعم به زوجاً . .

وقبل هذا أنعم بفتى يختار لابنته .. على ما تحفل به القرية من شباب أقوياء أغنياء ! ثم بحسن تربيته لها حين كان يختار لها من الحكايات .. ما يحفل به ماضيه من قصص الكفاح .. والشرف.. والتى قد يرفض البعض ذكرها .. بالتنصل من ماضيهم خوفاً على هيبتهم أن تزول !!

وهنا نفهم كيف كان ردّ الخاطب الصالح فتنة وفساداً كبيراً .. لأنه حرمان للأمة من عملة نادرة .. بقدر ما كان قبوله خيراً وبركة على المجتمع كله .. ولقد كان من جوانب العظمة فى شخصية صاحب البستان أنه هو الذى يعرض ابنته عرضاً .. وهو إذن قرآنى الدوافع والأهداف؛ لأن القرآن الكريم يقول : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ [القصص : ٢٧] .

وإذن .. فالذين يرفضون الخاطب الصالح .. بعيدون .. عن الوعى بحقائق القرآن .. منقادون لتقاليد بالية .. صارت لهم دينا غير الدين .. ولكنهم لا يشعرون !

ومن عظمة المالك .. إلى عظمة الأجير الذى لم تمتد يده لثمرة فى البستان بعد أن صار زوجاً لابنته ..

وكأنما يقيمه الحق تعالى حجة على أناس اليوم يتعللون لأكل الحرام .. صادرين عن قاعدة [الإضافة لأدنى ملابسة] .

ومن ثم فهم يسوغون ما يفعلون .. مسارعة فى هوى أنفسهم .. ولكن خادماً .. من خدم هذه الأمة يجسد الله تعالى فيه خلق الأمانة فيلزمهم به كلمة التقوى .

القيمة العلمية والقيمة الأخلاقية

قال شيخ ابن المبارك له :جئت أبداً مجلس الحديث ، وعليك أن تريحنى فتجلس مكانى لتحدث التلاميذ ! فقال ابن المبارك : معاذ الله أن أحدث وشيخى جالس يستمع ! فقال حماد : أقسمت عليك لتفعلن ، أقسمت عليك

لتفعلن ! فقال ابن المبارك : سأحدث بكل ما رويته عنك . . وبدأ يقول حدثنى شيــخى حماد بن زيد عن فــلان وفلان ، وهكذا يتابع الأحــاديث ،وكلها عن حماد ! وكــأن ابن المبارك أراد أن يعلن فضل أستاذه . وأنه مع شــهرته الذائعة فى الحديث ينزل منه المنزلة القــديمة حين كانا شاباً يستمــع ويحفظ . . وتعجب السامعون لكثرة ما روى عن حماد . فقال الشيخ : هكذا أضمن بقاء درسى ما بقى ابن المبارك . . فصاح عبد الله : ولى فى ذلك أمثال وأمثال !

ونذكر هنا ما روى من أن ابن عباس - رضى الله عنه - قــال يوماً لسعيد ابن جبير : حــدّث !فقال : أحدث وأنت شاهد [حاضــر] . فقال : مِنْ نِعَمِ الله أن تتحدث وأنا شاهد . فإذا أخطأت قومتك !

وكان يرتب طالبى العلم فيسمع منهم بالترتيب هكذا :

١- من يسأل عن القرآن وحروفه ؟.

٢- من يسأل عن التفسير ؟.

٣- من يسأل عن الحلال والحرام ؟.

٤- من يسأل عن الفرائض ؟.

٥- من يسأل الأدب والشعر ؟.

المصلح الاجتماعى

كان ابن المبارك إلى جانب علمه مصلحاً اجتماعياً :

فــقد قلنا : إنــه فى مســتهــل رحلة الحج كان يجــمع الدراهم حــتى من الفقــراء. . ثم يخلطها . . وهو اليــوم . .وبعد الحج يســأل كل حاج عن نوع الهدايا التى وصاه بهــا أهله وولده . . ثم يشتريها . . ويوزعــها . . فلا تحس نفس بالهوان. . ولا تحس أخرى بالغرور . . إنما هى الأخــوة الجامعة المانعة : الجامعة على الحق . . المانعة من الإحراج . وهذا ما دل عليه ابن المبارك :

عندما أصرَّ الأستاذ على أن ينوب عنه تلميذه . لقد استسلم التلميذ لكنه ظل محتفظاً بوفائه وولائه لأستاذه . . فلم يشأ أن يتعالم فى حضرته . . أو يتفاصح على مرأى ومسمع منه . . ولكنه محض الدرس لكل ما رواه عن أستاذه . . ليظل أستاذه سيد المجلس . . حتى لو تكلم التلميذ !

إن التلميذ هنا يعود بالفضل لأهله : يُهدى العود . . إلى أرض الهنود . والمسك . . إلى بلاد الترك . .

وما كان أسعد الأستاذ بتلميذ متميز . . يذكرنى بما أقوله لتلاميذ اليوم من النجباء . . إذن لو متنا . . لذهبنا إلى ربنا راضين . . وأين من هذا النموذج الآن تلاميذ متشاكسون . . . يتحرقون شوقاً إلى الكلام؟ .

هدايا الحجاج

وانطلق ابن المبارك ليسأل كاتبه عن أسماء الذين دفعوا النفقة اليسيرة فى مبدأ الرحلة ، فجاءت قائمة الأسماء بين يديه ، فكان يستدعى الواحد بعد الواحد منهم ، فيقول له: هل أوصاك عيالك أن تشترى لهم شيئاً من طرف مكة المكرمة والمدينة المنورة ؟ فيقول : نعم . فيقول : وبم أوصوك ؟ يقول : بكذا وكذا . . فيقيِّد ما ذكر ، ويدعو الثانى بعد الأول والثالث بعد الثانى حتى فرغ من أسماء القائمة وقد كتب جوار كل واحد وصية أبنائه . . وخف إلى السوق مع ثلاثة من معاونيه ، فاشترى كل ما أوصى به ، وزاد بما رآه ، فلما بلغ الركبُ فى رجوعه مشارف «مرو» ، أوقف القافلة ، وبعث إلى كل منزل من منازل هؤلاء من يقوم بتزيينه وترميمه وإصلاحه ترحيباً بمقدم الحاج (الغائب) .

وبعد أن انتهى العمل أقام وليمة حافلة أكل فيها الركب بأجمعه ودعا بالصناديق المليئة بحاجات الأهل فأخذ ينادى كل إنسان ويعطيه ما أوصى به بنوه ، فوزع من الثياب الجديدة ما لا يقف عند حد ، وعمّ البشر وجوه

الناس، حتـى قال الأثرياء : يا ابن المبارك لـيتك أخذت نقـودنا واشتـريت ما نريد، لنفرح كما فرح هؤلاء !! فقال عبد الله : إذا كانت المرة القادمة ، وأذن الله باجتماع الشمل .

وفى الطريق إلى باب «مـرو »، نظر عـبـد الله فـشـاهد رجـلاً يأتى إلى كناسة، فيحمل منها طائراً ميتاً فيتعجب وينهض فيسأله عما يفعل ، وقد تفرس فى وجهه ما يـنبئ عن الفاقة ، فقال الرجل فى ضراعـة : أُحلت لى الميتة وأنا مضطر . . فـقد كان أبونا ذا مـال فقتل وصــودر ماله ظلمـاً ، وبَقيتُ أتكفف لأسرتى فلا أجد ، فدمعت عينا عبـد الله ، وقال لرفاقه : الصدقة لهذا أولى من الحج المتكرر ، وصاح بوكيله : كم بقى لديك من نفقات الرحلة ، فقال : ألف دينار قال : خذ منهـا عشرين ديناراً تكفينا حـتى نأتى «مرو » ، وادفع ما بقى من الألف إلى الرجل ، فـهـذا أفضـل من حجنا هـذا العام ! وانصـرف الرجل ثرياً موسـعاً عليه ، وهو لا يعلم كـيف هبطت عليه الثروة ؟! وكـأنها نزلت من السماء ![1] .

أما بعد

فهذا هو تاريخنا . .

تـلـك آثـارنـا تـدل عـلـيـنـا

فـانـظروا بـعـدنـا إلى الآثـار

إنها آثار . . سلوك . . قدوة. . لمن شاء أن يتخذ إليها سبيلا

وخاصة فى مـوسم الحج الذى هو فرحة العمـر فى حياة المسلم. . والذى كان رحلة مباركة يذكر فيها الله. . ويشهد منافع له وللمسلمين . .

ولكن الواقع اليوم يؤكد كما قيل بحق.

---

(١) القصة وردت فى مجلة الحج وذو القعدة ١٤١٧ - وكان لنا التعليق عليها .

إن المسلمين يتمتعون بأنبل تاريخ. لكنهم للأسف يملكون أضعف ذاكرة.. والناس من حولنا .. يخططون .. بدقة ثم ينفذون .. بصبر. ولكننا نعشق الكلام.

إنتصور أن الأشياء ، تحل بمجرد الكلام فيها . فلو قررنا أن الدنيا بخير.. وإذا أعلنا أن الرخاء تحقق .. فقد تحقق الرخاء

لا يعترفون بالخطأ إلا بعد أن يقع .. ثم يفكرون فى تغطيته . لينوب الزمن عنهم فى تصحيحه .. أما غيرنا فيتعلم .. من الخطأ .. ولا يحاول أن يلدغ من الجحر مرتين..

ولديهم أفكار: لكن الفكرة لا تموت بموت صاحبها.. وليس لإنسان أن يستبد بالرأى وإن كان عبقريا .. وإنما هى روح الفريق .. تجمع الكل فى خندق واحد . وذلك واحد من ملايين المواقف يزدان بها تاريخنا ..

ونحن أولى الناس بتدبرها .. ثم فهم دروسها .. فى موسم من مواسم الخير .. حافل بصور هذا الخير .. والذى يتطلب الأخيار القادرين على أن يتأملوا العبرة .. ثم يتكون منهم الاعتبار .

فنحن أحوج ما نكون إلى : فن الإدارة .. ثم قوة الإرادة. وبهما معاً تتحقق الوحدة الجامعة..

إن أوروبا المختلفة فى كل شيء.. تتحد. والمسلمون المتقون .. مختلفون.

إن الباطل اليوم .. يتحول إلى بطل بينما الحق عاجز .. فى زمان يستنسر فيه البغاث !

مرة أخرى: ما أحوج. أمتنا إلى : إرادة قوية . وإدارة حكيمة !

الرحلة المباركة .. والحج السريع

لقد اخترع الناس اليوم ما يسمى بالحج السريع . . والذى هو أغلى فى تكاليفه . . ولكن . . فى ضوء ذلك الحج البطىء . . تبدو الفوائد الجمة التى تجعل من رحلة الحج مدرسة . . بل جامعة .

[كان المسافر من بغداد إلى القاهرة . أو الحاج إلى بيت الله . . ينفق شهرين من عمره .أو ثلاثه فى الطريق . ويحمل آلاما . وتعرض له مخاوف. ولكنه يحس بمئات من العواطف . وتنطبع فى نفسه آلاف الصور . ويتغلغل فى أعماق الحياة.ثم يعود إلى بلده . فيلبث طول حياته يروى حديثها . فتكون له مادة لا تفنى . ويأخذ منها دروسا لا تنسى .

أما الآن : فليس يحتاج المسافر « إن كان غنيا » إلا إلى الصعود على درجة الطائرة. . والنزول منها حيث شاء . بعد ساعات قد قطعها جالسا : يدخن دخينة . أو ينظر فى صحيفة . فهو قد ربح الوقت . ولكنه خسر الشعور .فما نفعتنا المواصلات إلا فى شىء واحد.

هو أننا صرنا نقطع طريقنا إلى القبر عدوا . . ونحن مغموض عيوننا . . لم نر من لجة الحياة إلا سطحها الساكن البراق [١].

---

(١) على الطنطاوى . فكر ومباحث / ٢٤ .

فريضة الحج
آيات وذكريات

تمهيد :

لما أراد عمر - رضى الله عنه - بناء الكوفة قال لعامله : تخير أرضاً نائية .. وكلف أمهر رام للسهام .. وليقف على ربوة عالية .. ثم يرمى فى الجهات الأربع .. وعند الموقع الذى تسقط السهام فيه .. يبدأ البناء .. على أن يكون ما بين الرامى والسهام .. ميدانا فسيحا. ثم يبنى المسجد على الربوة العالية .. على أن تكون نافذته باتساع ستة أذرع .. وعرض كل طريق اثنى عشر ذراعاً

وهكذا بيوت الله : مرفوعة مكانة .. بالصلاة والذكر .. ثم هى مرفوعة مكاناً .. كما أشار عمر - رضى الله عنه - والذى كان من تقديره لبيوت الله تعالى أنه لما وجد الناس يتكلمون فى المسجد بنى لهم برحة .. ثم قال : من أراد الصلاة والذكر .. ففى المسجد ومن أراد كلام الدنيا .. فههنا !!

البيت الحرام

وما فعله عمر - رضى الله عنه- هو تحقيق لما أراده الله تعالى من أن ترفع بيوت الله تعالى.. ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور -٣٦] .

فالمساجد هى القلوب الخافقة بذكر الله .. والتى تحتل مركز الدائرة على الأرض .. وتملأ بؤرة الشعور فلا تغيب .. ثم تبدو مع هذا تحفة معمارية .. فى بيئة نقية الهواء ... واسعة الأرجاء .. تتيح للمسلم فرصة العبادة فى جو يعين عليها. حتى تحقق الحكمة منها. فإذا كان البيت .. هو بيت الله الحرام.. فإن موقعه فى سرة الأرض يجعله قلبها النابض ..

وهذا ما أشار إليه المودودى .. الذى تصور الكعبة ذلك القلب الذى

يسحب الدم من كل فج عميق . . ثم يعيد ضخه من جديد !

وهو نفس المعنى الذى استقبله المرحوم الشيخ على الطنطاوى فصوره بحس الأديب وريشة الفنان فقال :

[ألا ترون العروق الشعرية . . كيف تحمل الدم من أطراف الجسم . ثم تصبه فى الأوردة الكبار ، حتى يدور دورته فى القلب مجتمعا . . وفى الرئة منتشرا . . فيصفو بعد العكر . وينقى من الوضر . .

ويعود فى الشرايين دما أحمر جديداً . . بعد أن كان فى الأوردة دما أسود فاسداً ؟؟ كذلك الحج :

يأتى المسلمون من آفاق الأرض الأربعة . . يأتون أفرادا . . ثم يتظمون جماعات . . ثم يدورون حول الكعبة : قلب الأرض المسلمة . ثم ينتشرون فى عرفات : رئة الجسم الإسلامى . . فتصفى نفوسهم من أكدار الشهوات . وتنقى من أوضار الذنوب.

ويعودون إلى بلادهم أطهارا . قد استبدلوا بتلك النفوس نفوسا جديدة. . كأنها ما عرفت الإثم . ولا قاربت المعاصى] (١) .

من آداب الزيارة

وإذا كان الحنين إلى وطن الجسم . . ما يزال يؤرقنا شوقا إلى العودة إليه. . فكم يكون شوقنا إلى وطن القلوب : الكعبة المشرفة !! .

إنه . . ليس الحنين فقط . . وإنما هو : الهوى . . الاندفاع إلي حيث الاستمتاع بجنة الحرم . .

ولكن . . كيف نستأذن فى الدخول إلى حمى الملك ؟ إن لنا فى دنيانا آدابا . . نلتزم بها :

---
(١) من نفحات الحرم : ٥٣ .

لما أراد مالك بن أنس - رضى الله عنه - الدخول على هارون الرشيد . . قال للفضيل بن الربيع : علمنى كيف أدخل على أمير المؤمنين . . وكيف أسلم عليه ؟ . . وأين أقف من مجلسه ؟

وفى الحج : تستأذن فى الدخول : بخلع ملابسك . . لتدخل فى أفق الآخرة بهذا الزى الموحد . .

وإذا بدت خـريطة العـالم ملونة . . بأشـكال الطيف . . فكانت الحـدود الفاصلة . . فإنه . . وفى ساحة الرضوان . . يتراءى اللون الأبيض . . والخيام البيض . . فى وحدة جامعة . . وحدة تستدبر الدنيا . . ثم تستقبل الآخرة . .

لبيك اللهم لبيك

ثم يهتف الحاج من أعماقه: لبيك اللهم لبيك إن لنا أهلا . . ولنا ذرية . . ولنا كذلك أوطان وأموال . . نحن مشدودون إليها . . بل إنها تعيش فينا . .

ولكنك لما دعـوتنا يارب للرحلة . . لبينا الدعـوة طائعين . . مسـتجـيبين لدعوة تحيينا . . بعد أن تبلد الإحساس بمتاع دنيانا . .

ولاحظ عمق الضراعة وصدق الخضوع فى قول الحجيج : لبيك اللهم . . لم يقولوا : لبيك يا ألله . . لكنهم حـذفوا حرف النداء . . ثم جاءوا «بالميم» عوضا عنه . .

ولما كانت الميم من الحروف التى تضم بها السفاه . والضم يعنى الجمع . . فكأنهم يلبون . . داعين الله بجميع صفات جماله وكماله سبحانه وتعالى .

طواف القلوب :

وتكاد القلوب أن تطير . . لتسبق الأجسـام إلى هناك . . إلى الكعبة التى صورها الأدباء فقـالوا : بيت . . عتيق : «بلا زخـارف . . ولا نقوش . . قد بنى بحجارة سـوداء . . بسيطة . . بلا تزويق . . ذلك بأن الفنان المزخرف . .

هناك من هو أعظم منه . .

. أما الفطرة التى شيدت الكعبة فستظل نسيج وحدها فى العظمة . . وفي الخلود . .

وهناك . . تطوف . . فتضع أقدامك حيث وضع الرسول ﷺ قدميه . . وهناك أيضاً: تلثم الحجر . . لتضع فمك حيث وضع الرسول ﷺ فمه }.

الموكب الخالد :

وهذا الشوق العارم . . باق ما بقى الحرم . . ما بقيت الحياة . .

ومن ثم . . سيظل موكب الحجاج والعمار باقيا . . زاحفا صوب البيت . . يطفئ حرقة الأشواق . .

لقد أذن إبراهيم فى الناس بالحج - كما أمره ربه تعالى . . ثم هاهم أولاء يزحفون . . وعلى مرّ الزمان كله . . ﴿**يأتون من كل فج عميق**﴾ « يأتون » بما بشير به الفعل المضارع من تجدد . . يعكس صورة الموكب الماضى إلى بيت الله . وإلى يوم الدين .

وقفة عرفات

آذن إبراهيم عليه السلام بالحج . . فكان- صوته - بإذن الله - مسموعا . . وكان أمره متبوعاً . وهاهم أولاء ضيوف الرحمن يتجهمون إلى عرفات . . يدعون ربهم تضرعا وخفية . .

أرأيت إلى ذلك الشيخ الذى بلغ من الكبر عتيا فضاعف من عبادته ؟ . . فلما سئل فى ذلك قال : لقد أبصرت الغاية . . ودنوت من الجزاء عند ربى . . فكيف لا أسهر ليلى . . ولا أظمأنها نهارى

وأبرح ما يكون الشوق فينا   إذا دنت الديار من الديار !

العيد الأكبر :

ونذكر هنا ما روى عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : إن رجلا من اليهود قال له : يا أمير المؤمنين : آية فى كتابكم تقرأونها .. لو علينا معشر اليهود نزلت .. لأخذنا ذلك اليوم عيدا .

قال: أى آية؟ قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة:٣].. الآية .

قال عمر - رضى الله عنه - : قد عرفنا ذلك اليوم .. والمكان الذى أنزلت فيه على النبى ﷺ . وهو قائم بعرفة يوم الجمعة بعد العصر.

أشار - رضى الله عنه - إلى أن اليوم عيد لنا . وكذلك المكان ؟ (١) .

من دروس عرفات

ذكر القرآن الكريم .. عرفات .. بالتاء المفتوحة .. إشارة إلى انفتاح الساحة الطهور .. والتى تستقبل كل الناس من قارات الدنيا الخمس .. والذين تجمعهم الوحدة على كلمة سواء ..

يضاعف من سرور الحجيج تلك البركات من السماء : مغفرة أغاظ الله بها الشيطان الرجيم والذى ما رئى أحقر ولا أصغر ولا أدحر منه فى ذلك اليوم.. لما يراه من غفران الله تعالى ذنوب عباده .

ثم بركات من الأرض متمثلة فى هذا الودى الحميم الجامع للمسلمين. الذين تذوب الفوارق بينهم اليوم.. فإذا هم يعيشون بقلب واحد .

ثم بركات من النفس بهذه السعادة الغامرة : لقد كانوا قبل عرفات يدافعون أوهام الموت قبل أن يصلوا إلى عرفات ..

وإذن.. فما أشد خيبة الأمل عندئذ .. أما وقد وصلوا .. والحج

(١) [حاشية الجمل] .

عرفة.. فقد تمت نعمة - ربك .. وأدوا الفريضة بهذه الوقفة المباركة ..

إن مشهد الحجاج .. الذين يلتقون جميعا فى هذا المكان وهذا الزمان .. بعد ما كانوا من قبل جماعات .. من شأنه أن ينشىء فى قلب المسلم إحساسا بأنه فى معية الله تعالى .

روى البيهقى عن على- كرم الله وجهه - قال: قال رسول الله ﷺ :

«إن أكثر دعـاء من قبلى من الأنبياء ودعائى يوم عـرفة أن أقول : لا إله إلا الله وحـده لا شـريك له . له الملك . وله الحـمـد . وهو على كل شىء قـدير . اللهم اجعل فى بصرى نورا وفى سـمعى نورا. وفى قلبى نورا. اللهم اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى . اللهم أعوذ بك من وسواس الصدر ومشتتات الأمر . وشرّ فتنة القبر . وشرّ ما يلج فى الليل . وشرّ ما يلج فى النهار. وشرّ ما تهب به الرياح . وشرّ بوائق الدهر » .

وعندئذ يحس المسلم بأنه أكبر من حجمه . وأنه لا يعيش وحده .. وإنما هو ضمن هذا الحشد الهائل عضو فى كيان عظيم.

وإذا كان غيرنا من أهل الأديان يحسدوننا على يوم الجـمعة الذى تبدو فيه الجمـاعة المسلمة فى أفـضل حالاتها .. فـكم تكون نشبة هذا الحـسد .. يوم عرفات .. إزاء هذا التجمع الذى لا نظير له .. والذى وحدت فيه العقيدة بين كل هذه الأجناس والألوان ؟ والتى تـتجـه إلى الله تعـالى بمثل هذا الدعـاء . الذى تبدو فيه وحده الصف ووحدة الهدف..

محاولة فاشلة
لضرب الوحدة

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . [البقرة :١٩٩]

كانت قريش وحلفاؤها يقفون بالمزدلفة . . ولا يتجاوزونها إلى عرفات .

ومر بهم أبو بكر - رضى الله عنه - وكان أميرا على الحج . . فتركهم قاصدا عرفات . . فقالوا له : إلى أين . . وهذا مقام آبائك وأجدادك؟ . فلا تذهب . . ولكن الصديق - رضى الله عنه - مضى . . ولم يلتفت إليهم .

شبهات المتمردين

وقد تعللت قريش بما يلى :

١- إن الحرم أشرف من غيره . فالوقوف به أولى .

٢- وكون الموقف عرفات يعنى نقصا فى الحرم . . وهو مالا يوافقون عليه .

والبقاء للأصلح

ولقد باءت محاولتهم بالفشل . . ونزلت الآية الكريمة تربط على قلوبهم:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة : ٣] .

ويعنى تمام النعمة بإكمال الدين :أنه لا حاجة بكم أيها المسلمون إلى مداهنة الكفار بعد اليوم . . لأنكم صرتم بحيث لا يطمع أعداؤكم فى توهين أمركم . . فسيروا على بركة الله . . وهو معكم أينما كنتم .

إبراهيم عليه الصلاة والسلام الأسوة الحسنة

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ .. ﴾ [الممتحنة : ٤]

تتنازع الإنسان أهواء شتى :

فبينما صوت العزيزة يصرخ فيه . . ليشبعها . . فإن نداء الواجب يهتف به : أن تجاوزها!

وعلى طريق الحياة تسـقط جماهير غفيرة صـرعى أطماعهم وأهوائهم .. التى تستبد بهم فلا يستطيعون ردها ..

لكن إبراهيم عليه السلام .. لم يتردد لحظة واحدة - وفى أصعب امتحان يتعرض له إنسان - لم يتردد فى صد هجمة الغريزة الغلابة :

غريزة الأبوة

وغريزة بقاء النوع.. وغريزة مستجيبا لأمر الله تعالى بذبح ولده ..

تمهيد :

الحـياة بلا ذكـريات .. صورة مكررة .. مملـة .. لكننا نجددها بذكـرى عظمائنا .. الذين نضـفى عليهم من خيالنا .. وبدافع من تقـديرنا وحبنا .. نبرزهم كما يشاء هوانا .. لا كما هم فى الواقع ..

ولكن ذكرى الأنبـياء شىء مخـتلف : فنحن الذين نعطر بهم حـياتنا .. ونسعد أنفسنا بصحبتهم .. والحديث عنهم ..

وفى طليعتهم الخليل إبراهيم عليه السلام والذى نجدد بذكراه شبابنا ..

فماذا نحن قائلون اليوم ؟ ..

وفى موسم الحج .. الذى أذن فيـه الخليل به فى الناس .. فكان ما أراده الله تعالى .

وظيفة المسلم

إنها المبادرة إلى الخير . .

يقول تعالى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ..﴾ [البقرة:١٤٨] .

بادروا إلى الصالحات قبل أن تشغلكم الدنيا . .

إنه السباق إلى المغفرة والجنة . . ولن يصل المتسابقون إلى غايتهم إلا بزاد من القيم . . من الأخلاق . . إن الذكاء وحده لا يكفى للوصول إلى المأمول . . وهو فى حاجة إلى بنية تحتية تحميه حتى لا يصير غروراً . إنه فى حاجة إلى خلق كريم يعصمه من الزلل . . ألم تر إلى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ [القصص :٢٦].

فهى القوة المحروسة بالأمانة المانعة من الطغيان . .

ثم نقرأ قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام :

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف :٥٥].

فهو عليم بتدبير شئون الأمن الغذائى لكنه يحمل ضميراً حساسا يحميه من الشطط . . إن العلم وحده . . بلا ضابط من الأخلاق : شيطان مارد . . فارد شراعه لا يدع شيئاً أتى عليه إلا جعله كالرميم . .

وفى مجال التربيه نقول للآباء المتهافتين على كليات القمة [وفى ضوء الذكرى]: ليس بالذكاء وحده يحصل التلميذ على الدرجة الأعلى . . فقد يكون هناك مجموعة من الطلاب : درجة ذكائهم وتحصيلهم واحدة . .ومع ذلك يتفاوتون فى الدرجات . . بل قد يسبقهم متوسطو الذكاء أحيانا . . ويعنى ذلك : أن هناك عوامل أخرى للتفوق . من وراء العوامل العقلية . وهى :

مستوى الطموح

الثقـة بالله .. ثم بالنفس .. إلى غير ذلك .. مما يشـكل البناء النفسى الداخلى .. الذى لا يغنى عنه الذكاء بحال ..

إننا نقرأ قوله تعالى : ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران :٩٧].

فالآيات البينات : جمع .. والمقـام واحد .. فأين هى بقية الآيات ؟ إن وراء هذا المقام كوكبة مباركة من القيم الأخلاقية التى بها تم ذلك العمل العظيم بتوفيق الله تعالى :

إن أثر قدم الخليل عليه السلام دليل قصة كفاح لا يخوضها إلا أولو العزم من الرجال : فمن ورائها : التوكل على الله ..

ثم إفراغ كل الجهد .. مع الصبر الجميل.ثم الدعاء بقبول العمل .. بينما الحركة على أو فى معانيها ..

أى أن القلب متصل بالله تعالى ..

والجوارح تجـتهد عـاملة فى نفس اللحظة .. ثم ينطلق الدعـاء من أسرة مسبوكة بالإيمان .. والطاعة :

الوالد ..

والولد ..

كلاهما يشكل منظومة من الأخلاق . يتم بها العمل .. فيتحقق الأمل .

العمل الصالح

إن أساس الحـضارة إذن هو : العمل .. والعمل بوصف الصـلاح المحقق أهدافه على شرط الإسـلام.. العمل المنطلق من قاعدة الأخلاق .. مـشمولا برعاية الخلاق: واقرأ معى قوله تعالى : ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا

صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١١].

فالله تعالى يأمر داود عليه السلام: أن يستعد .. واستعداده: أن يصنع دروعا سابغات وأن يجعل الحلقات متساوية. ضيقة.. حتى لا تنفذ منها السهام ..

ولكن .. مع الأمر بالاستعداد .. فلا نجاة .. لا نصر إلا بالقيم .. بالعمل الصالح .

﴿واعملوا صالحا﴾

فإنما الأمم الأخلاق .. ما بقيت هذه الأخلاق .. والتقدم المادى .. والابتكار.. لا يغنى عن الصلاح الذى يقى الأمة من الضياع .. بل إن الآية الكريمة تحذر من تقدم علمى منفلت من قاعدته الأخلاقية .. وذلك فى ختام هذه الآية الكريمة :

﴿إنى بما تعملون عليم﴾

أعلى مستويات البر :

وإذا فأمة الإسلام مأمورة بالعمل الصالح .. على أن يكون هذا العمل شكراً للذى وفق إليه وأعان عليه.. سبحانه وتعالى : ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

يقول علماؤنا :

والقرآن الكريم يركز على هذا المعنى .. قضاء على وهم أن الكونيات تترتب عليها نتائجها بلا تخلف .. مؤكدا أن العمل الصالح - قبل ذلك - تترتب عليه أيضاً نتائجه .. بلا تخلف .. وإن كنا لا نراها .. أو يتأخر حدوثها ...

ألا إن غبار العمل.. خير من زعفران الكسل. وأرجح المكاسب : الاتكال على الله تعالى.. ثم السعى فى طلب المعالى .. وإلا .. فإذا قصر العبد فى العمل .. ابتلاه الله تعالى بالهموم.. أو كما قال علماؤنا .

صورة
من التعاون على البر

وقد كان هناك آباء صدق تعاونوا مع أبنائهم على البر والتقوى .. ومنهم ذلك الوالد الذى وصى ولده قائلا:

يابنى : إذا كنت بين صلاتين .. فاحفظ قلبك .. لتدخل فى الصلاة بوعيك. وإذا كنت بين اثنين .. فاحفظ لسانك .. تظفر بهما جميعا .. وإذا كانت لك نعمة.. فلا تضيعها بالبخل .. وابذلها .. وإذا ابتليت .. فأقبل على مولاك .. يستجب لك .

يابنى: إنه من اعتمد على ماله .. قلّ ومن اعتمد على عقله .. ضلّ . ومن اعتمد على الناس .. ذلّ .. ولكن المتوكل على الله .. ما يذلّ .. ولا يقلّ .. ولا يضلّ .. إنه العزيز .. بلا عشيرة. والغنى .. بلا مال .. والعالم .. بلا شهادة !! والمهيب .. بلا منصب !

إن الوالد البار بولده هنا .. يوثق صلته بربه سبحانه وتعالى .. ثم بالناس من حوله .. بمعنى: أنه إذا كان يريد لنفسه ذكرا حسنا من بعد موته.. وإذا كان يريد أسرة قوية عصية على الانحراف .. فليحاول أولا أن يبنى من سيبنى هذه الأسرة وهو : الولد .

من أجل ذلك جاءت وصاية محققة هذه الغاية بإذن الله تعالى.

ثقب فى البناء الأخلاقى

واليوم .. هناك آباء غافلون .. أو مغفلون : يذبحون أبناءهم .. بلا

سكين . . وبلا دماء . . هؤلاء الذين لا يعيشون لهم . . ولا يقفون إلى جانبهم مرشدين موجهين . . فكان عقوق الآباء . . سببا فى عقوق الأبناء . .

الأبناء الذين لا يكتفون بعقوق أبائهم وإنما يصبون نقمتهم على المجتمع بالإدمان . . هروبا من واقع أليم . . صنعه آباء سوء . . قتلوا أولادهم بالمخدرات . . ولم يقتلوهم بالسلاح !!

يوم النحر

يقول تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] .

إذا كانت الصدقة تقع فى يد الله سبحانه . قبل أن تقع فى يد الفقير . . فإنه فيما يتعلق بالأضحية أو الهدى فإن الذى يتقبله الله تعالى ليس هو اللحم ولا الدم . . وإنما يتقبل الله تقوى القلوب :

﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج : ٣٢] .

إن مفاوز الدنيا تقطع بالأقدام . .

ولما كان الفداء لله . . فإنه الطريق إلى الآخرة ولا يقطع إلا بالقلوب . ومن أشخص بقلبه إلى الله تعالى . . انفتحت ينابيع الحكمة من قلبه . . ثم جرت على لسانه .

[نعمة الله تعالى . . فى الأنعام] .

نيل النعم

وقد تكفل الحق تعالى بتفصيل هذه النعم فى كثير من الآيات :

يقول تعالى : ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ [النحل :٦٦].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ . وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ . وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس : ٧١ - ٧٣].

وفى تسميتها «بالأنعام . . دلالة على اشتقاقها من . . النعمة . . والتى أشار إليها القرآن الكريم . . فى قوله تعالى :

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ . أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾

[الشعراء : ١٣٢، ١٣٣].

الآية الكريمة تجعل من دواعى التقوى . تذكر نعمة الإمداد بالأنعام . . والبنين . .

ولاحظ تقديم الأنعام فى الذكر على الأولاد . . لأنها مال . . والمال مقدم على الأولاد : ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن : ١٥].

عموم النعمة

والنعمة فى الإنعام. . فى كل بيت . . يحس بالدفء . . أو يأكل لحما . . أو يشرب لبنا . . أو يركب مسافرا . .

ومن العجيب :

أن الأنعام المسخرة . . الذلول . . في يد الغلام الصغير . . يقودها حيث شاء بلا مقاومة . . هى هى التى سخرها الحق تعالى لأكل التبن . . والحشائش اليابسة . . مما يعافه الإنسان . . وبقية الحيوانات . . بفضل ما اختصها الله تعالى به من. . كرش . . المحتوى على كميات هائلة من الكائنات الدقيقه التى تهضم وتحول كل ما فى هذا الكيان. . ليصير بإذن الله تعالى طاقة دافعة !!

بل إن ما تتناوله قليل . . ومع ذلك فعطاؤها جزيل .

نعمة الإبل

وللإبل موقعها المتميز بين الأنعـام : فهى أجمع للنعمة . وأظهر للقدرة . وأحرز لأسباب المنافع .

قـال الماوردى : حلوبة . . ركوبة . . أكـولة . . حـمولة . . ونقـول : رقوءة . . لأن الله يرفأ بها الدماء فى الديات .

جاء فى المصباح : « لا تسبوا الإبل . فإن فيها رقوء الدم » .

أى حقن الدم . لأنها تدفع فى الديات .

يقول العلماء : [يعرف حليب الناقة : بدسامته وفوائده الصحية العالية . حتى أن البـدو درجوا على إبعاد ولد الناقـة عنها . بعد ولادته بأشهـر أربعة. للإفادة من حـليبهـا ذى الطعم المالح . حيث يغـنى السائر فى الصـحراء عن الماء . . وعن الغذاء].

[ولا يقتصر الدهن على ما يفرزه اللبن . . وإنما هناك فى الصوف نوع من الدهن المعروف بأثره فى عمل المراهم وأدوات التجميل . . فرارا من آثار الثياب المستوردة وما يترتب عليها من أذى يؤثر فى الجلد] [1] .

ويبقى أن يشكر الفلاح بالذات نعمة السماد الذى يخصب الأرض بلا ثمن مدفـوع . إلى جانب كـون الإبل بفضل اللـه عزّ وجلّ . . لركوب ثـم تحمل الأثقال عبر المسافات البعيدة إلي الحد الذى سميت به . . سفينة الصحراء . .

وذلك ما يشير إليه قوله تعالى :

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل : ٧].

ومما يؤكد هذا التميز ما تقوله اللغة : [قيل : النعم الإبل خاصة .

(١) (راجع - مجلة المنهل ٤ مارس ١٩٩٨ من مقال للدكتور حامد الفيشاوى) .

وقيل : تطلق الأنعام على هذه الثلاثة . [الإبل والبقر والغنم] .

فإذا انفردت الإبل فـهى : نعم . وإذا انفردت البقر والغنم لـم تسم نعما] (المصباح المنير).

الحكمة فى خلق الإبل

ثم إن تكوين الإبل آية من آيات الله تعـالى . . أظهر من آياته تـعالى فى السموات . . ولذلك تقدمت الإبل عليها فى الذكر .

وذلك قوله تـعالى : ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ [الغاشية :١٧، ١٨].

ولاحظ من أبعاد الحكمة الإلهية هنا :

فى حياة الإبل : وفى ذبحها : كـيف ؟ إن الله تعالى قضى أن تنحر . . تنحر . . ولا تذبح ، فلو أنهـا ذبحت لكان الذبح من أعلى . . وإذن فعنقـها الطويل مانع من وصول الدم إلى الفتحة ليخرج منها . . ومن ثم تظل نسبة منه كبيرة لتكون فى النهاية سما فى الأوردة !

أما لو نحرت . . فإن النحر من أسفل . .قريبا من القلب الذى يضخ الدم فيخرج كله من قريب . . ليبقى اللحم نقيا من الدم . . صالحا للآكلين !

وفى النهاية . . تتبلور مقاصد الحج فى هدف واحد هو : وحدة الأمة . . والمتمثلة فى مشروع الأضاحى . . والتى تدخر لحـومها لتوزع على فقراء العالم كله . .

وصار إلى الإنسان مـا كان يأكله السبع . . وتتخطفه الطيـر - كما لاحظ العلماء - أنها الوحـدة الجامعة والتي يحس بها الفقـير أنه لا يعيش وحده . . وأن له . . حضـوراً . . فى قلب أمة لن يدخر وسـعا فى نصرتهـا . . وعمق الانتماء إليها .

أما بعد : فقد قالوا : الشعراء أربعة : فشاعر يجرى . . ولا يُجرى معه وشاعر . . يجـول فى المعمعة. وشـاعر . . تكره أن تسمعـه. وشاعر . . لا تستحى أن تصفعه !

ومن هؤلاء الذين يستأهلون احتقارنا ذلك الذى يقول مستهينا بشعائر الله:

ولست بصائم رمضان عمرى ولست بآكل لحم الأضاحى !

أما بعد : فإذا كـان الحق تعالى قد تجاوز عن الحاج فعـاد كيوم ولدته أمه صحيفة بيضاء مغفورا له . . فقد وجب على كل مسلم أن ينسى ما كان له عند ذلك الحاج من سيئات . . لنبدأ معا صفحة جديدة. . لقد عفا الخالق القادر. . فأولى بالمخلوق الضعيف أن يعفو . . عفـوا سوف ترتد إليه آثاره من أخيه حبا ووداداً لقد كان حقك عليه مما تاب منه . . فكن عبد الغفور الرحيم .

دروس من وعيد الأضحى

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعىَ قَالَ يَابُنىَّ إنّى أرَى فى المَنَامِ أنّى أذبَحُكَ فَانظُر مَاذَا تَرىَ قَالَ يَأَبَتِ افعَل مَا تُؤمَرُ سَتَجِدُنى إن شَاءَ اللَّهُ منَ الصَّابِرينَ . فَلَمَّا أسلَمَا وَتَلَّهُ للجَبينِ وَنَادَينَاهُ أَن يَا إبراهيمُ . قَد صَدَّقتَ الرُّؤيَا إنَّا كَذَلكَ نَجزِى المُحسِنينَ . إنَّ هَذَا لَهُوَ البَلاَءُ المُبِينُ . وَفَدَينَاهُ بِذِبحٍ عَظيمٍ﴾ [الصافات ١٠٢- ١٠٧].

تمهيد :

فى حياة كل إنسان لحظات عصيبة :

تضطرب الأفكار فى رأسه . .وتستبد الانفعـالات بنفسه . . فترتبك قدماه على الطريق . . وتحت ضـربات البلاء النازل . . تتـبعثـر القوى فى متـاهات الحيرة . . فيما يشبه الليلة الظلماء . . غاب فيها القمر .

ولقد عاش سـيدنا إبراهيم عليه السلام . ذلك الموقـف العصيب . والذى

يعلمنا دروسا منها : الاستغناء عن الدنيا . . لا بالدنيا .

إنه عليه السلام . وفى اللحظة التى بدأ يستغنى بولده . . يؤمر بأن يستغنى عنه . ونجح الوالد . . ثم نجح الولد . حين أسلما طائعين لأمر الله . .

فيالها من طفولة ذكية لا تطلب فرصة التفكير قبل اتخاذ القرار . . قرار الموت . . ولكنه يناديه : ﴿ يَا أَبَتِ افعَل مَا تُؤمَرُ ﴾ .

ويحقق الوالد باستجابته لأمر الله أعلى صور الغنى . . حين تطاوعه نفسه أمام هذا الموقف العصيب .

إن سخاء النفس لا يثبت لك لمجرد أنك استغنيت عن بعض مالك . . لفقير .

ولكن السخاء كل السخاء أن تصدق وأنت صحيح . . شحيح . . تخشى الفقر . . وتأمل الغنى . . أن تستغنى وأنت متشبث بما تملك . . مشوق إليه . . حريص عليه . . وكذلك فعل الخليل عليه السلام .

٣- يقولون : إن من عشق اليمن . . لم يلتفت إلى الشام . . وهكذا المسلم : يوطن نفسه على طاعة الله تعالى . ليكره المعصية . . ولا يلتفت إليها . .

وبينما الساهون اللاهون . . يسارعون فى أهواء أنفسهم . . فإن المسلم الملتزم : يتعب اليوم . . حتى لا يتعب غداً !

لقد غلب طبعه . . فسلم . . وليس العجب أن تغلب الطبع . . لكن العجب أن يُغلب . . ولقد غالبه الخليل وولده عليهما السلام . . فغلباه . . فكان الانتصار . . فى الوقت الذى هزم أسارى الهوى .

فن إدارة الأزمات

إنه يعطينا درساً فى فن إدارة الأزمات :

لقد كان الوثنيون من حوله كهـذا الإنسان . . الذى يغالب الموج . . مشرفا على الغـرق . . لكنه بدل أن يشغـل نفسـه بالخروج من المأزق . . يصـر على حمل مـتاعه مـعه . . وهو سبب هلاكـه . . إنه مشغـول بالدنيا . . وبدل أن يطرحها ليصل إلى الشاطىء بسلام . . إذا بالأطماع تقيده . . . فكان أن حطم متعتـه . . بمتاعه ! وهكذا على مستـوى الأمم : تسلل الخوف على الدنيا . . إلى الأعماق . . فالتهم الإحساس بالأمن . .

فدخلت أمم بالخوف كـهف النفاق . . فصفقـوا وهم لا يعرفون . . لأى شىء يصفقون !!

أما إبراهيم عليـه السلام : فقد واجـه المشكلة . . وعلى الفور . . بإرادة تستمد قوتها من معـين الإيمان . . ومن عزم الطفولة التى صنعها على عينه . . لقد اختفى التردد الذى يشتت القوى . . وينقض العزائم من بعد قوة أنكاثا . .

وعندمـا يتردد القـائد العسكرى فى اتخـاذ القرار المناسب فى المنعـطفات الخطيرة . . فإن فرصة الانتصار قد تذهب . . ثم لا تعود . . وقد علمنا الخليل هنا : كيف نواجه المشكلات بالحزم . . ولا ندور حولها . .

حتى لا تتعقد . . ولا تتفاقم . . والنتيجة من قبل . . ومن بعد . . على الله تعالى .

وهل هناك من مشكلة أعقد من تكليف والد . . يذبح ولده ؟

ولكن إبراهيم عليه السلام تحـمل مسئولية الموقف العصـيب . . فدل بهذا التحمل على أنه كان معجما نفسيا صاغه الله تعالى على عينه . .

الاستجابة لأمر الله

وهو درس فى الاستجابة لأمر الله .. مهما وصل الثمن المدفوع إلى درجة الإحسان ..

الإحسان الذى استنزل به رحمة الله .. وهى قريب من المحسنين .

﴿فَلَمَّا أَسلَمَا وَتَلَّهُ للجَبِينِ وَنَادَينَهُ أَن يَا إِبراهيمُ . قَد صَدَّقتَ الرُّؤيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجزِى المُحسِنِينَ . إِنَ هَذَا لَهُوَ البَلاَدُ المُبِينُ . وَفَدَينَاهُ بِذِبحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات :١٠٣-١٠٧].

ولقد كان الجزاء عظيماً من جنس هذا العمل العظيم: إنه :ذبح .. وذبح عظيم .

وإذا كنا نقول : قيمة العبد من قيمة سيده .. فإنا نقول : لقد كانت نوعية الذبح وعظمته .. أمارة كرامة هذا الإنسان .

هذه العظمة التى ترجمها ﷺ لما اختار الأضحية كبشاً : والكبش يعطى معنى السيادة فى لغة العرب ..

الألم النبيل

كان التكليف بالذبح مفاجأة للخليل عليه السلام .. ومن شأن المفاجأة أن تربك الإنسان .. ومن طبيعة الحزن أن يغبش الجو فلا يمكنه رؤية أبعاد الموقف..

لكن أصحاب العزائم الماضية لهم مع الأحزان شأن .. فعند الحزن .. يكونون هادئين . يقرؤون أفكارهم .. بروية .. وواقعية وقد يفكرون برشد وحكمة .. وقد تصيب غيرهم الشوكة .. فينتحبون ويضجون ..

أما هم .. فالشوكة - وإن أصابت قلوبهم .. لا أقدامهم - إلا أنهم يحسنون التعامل مع الحدث الهاجم.. وبالتالى.. مع العالم من حولهم .. فإن لحظة الألم النبيل.. تفر بهم من اليأس .. وليكونوا أقوى من الغضب..

ومن الدموع فلا يحطمون . . ولا يشقون الجيوب . . وإنما هى الشدائد . . تهجم على الراشدين فإذا هم فى هجمتها من الثبات على أوفى ما يكون الثبات هذا الثبات الذى فاض من الجوانح . . على الجوارح . . فأمسكت اليد بالسكين . . ولم تضطرب !

وذلك يعنى أن الرجل القرآنى يحسم القضية ولا يتردد . . ذلك بأنه يعلم . . أن القرآن . . له . . أو عليه . . ولا احتمال ثالث هنا . . لأنه احتمال التميع والتردد . فليتقدم فى معمعان الخطر بقلب جسور . . وإرادة ماضية . . والنتيجة بعد ذلك على الله سبحانه . إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة . فإن فساد الرأى أن تترددا .

ألم تر إلى عبد الله بن رواحة - رضى الله عنه - . . لقد تردد بين يدى المعركة بينما لم يتردد صاحباه من قبل . . فكان أن رأى الرسول ﷺ فى سريته ازورارا عن صاحبيه جزاء ماتردد .

وفى الوقت الذى يفسد الانفعال قلوب الناس . . يقف الخليل عليه السلام كأنه الطود الأشم . . يدير بالعقل شئون الموقف . .

ومن وراء هذا العقل قلب صبور جسور . . يغترف من أنهار الحلم فى كيانه . . ماء غدقاً . . فلا هو يمل . . ولا أنهار الحلم تجف . .

وكأنما كان الخليل إنساناً انفلت من قبضة الزمان . . فلم يكن من عصر معين : يزول الزمان . . ولا يزول . .

لقد أراد له ربه سبحانه أن يكون يتيمة الدهر . . وكأنما وكلته الأمم على مدار الزمان . . ليعبر هو عن مكنون الفداء فيها . . فكان . .

لو كان الخليل فى مقتبل الشباب . . لقلنا : لقد استجاب الرجل لأمر ربه . . وإن له فى عمره متسعاً يمكن أن يكون له فيه أولاد . . لكنه يضحى . .

بينما كان عمره تسعاً وتسعين سنة . . إنه قرن من الزمان. . وفى لحظة تجنح فيها شمس العمر إلى مغيب . . يجيئه الأمر بذبح ولد طال الحنين إليه !!

وأحياناً يحتار الإنسان بين عقله وقلبه . . قلبه الذى يجذبه . . مخلداً به إلى الأرض . إلى مناعم الدنيا . . وعقله الذى يعقله . . يتجاوز به اللحظة العصيبة . .

والعظام من الناس لا يترددون فى مواجهة هذه اللحظة . . ولا يرضون لأنفسهم أن يكونوا لها أسرى . . لأن الزمن لن يتوقف من أجلهم . . ولذلك فهم يقتحمون العقبة. . وفى لحظات الألم يجودون بأثمن ما عندهم من مبادئ مذخورة فى كيانهم . .

كالمحار

لا تجود بما فيها إلا إذا اصطدمت بجسم غريب . . لكن . . ما قيمة ما يجود به الخليل هنا ؟ إنه النفس . . والجود بالنفس أقصى غاية الجود. .

إن حجم الصدقة يقاس بمقدار وضع المتصدق نفسه. . ولذا كانت الصدقة العظيمة. . ما جاءت وأنت صحيح. . شحيح . . تأمل الغنى وتخشى الفقر. . كما أشرنا .

وبهذا المقياس كان الخليل سيد الناس . . إنه يجود . . وهو فى قمة التعلق بولده. . يفعل هذا. . بينما الساهون اللاهون. . يدللون أنفسهم . . فيسارعون فى هواها فيما تحب فأوقعتهم من بعد فيما يكرهون .

مما أدرك الناس من الحكمة البالغة .

اعمل لدنياك . . بقدر إقامتك بها . . واعمل لآخرتك . . بقدر بقائك فيها . .

إنك فى الدنيا ضيف . . وسوف تغادر المنزل غدا . . فالدنيا إلى زوال . .

بينما كان عمره تسـعاً وتسعين سنة . . إنه قرن من الزمان. . وفى لحظة تجنح فيها شمس العمر إلى مغيب . . يجيئه الأمر بذبح ولد طال الحنين إليه !!

وأحياناً يحـتار الإنسان بين عقله وقلبه . .قلبـه الذى يجذبه . . مخلداً به إلى الأرض . إلى مناعم الدنيا . . وعـقله الذى يعقله . . يتـجاوز به اللحظة العصيبة . .

والعظام من الناس لا يتـرددون فى مواجهة هـذه اللحظة . . ولا يرضون لأنفسهم أن يكونوا لها أسرى . . لأن الزمن لن يتوقف من أجلهم . . ولذلك فهم يقتحمون العقبة. . وفى لحظات الألم يجودون بأثمن ما عندهم من مبادئ مذخورة فى كيانهم . .

كالمحار

لا تجود بما فيـها إلا إذا اصطدمت بجسـم غريب . . لكن . . ما قيـمة ما يجود به الخليل هنا ؟ إنه النفس . . والجود بالنفس أقصى غاية الجود. .

إن حجم الصدقة يقاس بمقدار وضع المتصدق نفسه. . ولذا كانت الصدقة العظيمة. . ما جاءت وأنت صحيح. . شحيح . . تأمل الغنى وتخشى الفقر. . كما أشرنا .

وبهذا المقياس كان الخليل سيد الناس . . إنه يجود . . وهو فى قمة التعلق بولده. . يفعل هذا. . بينما الساهون اللاهون. . يدللون أنفسهم . . فيسارعون فى هواها فيما تحب فأوقعتهم من بعد فيما يكرهون .

مما أدرك الناس من الحكمة البالغة .

اعمل لدنياك . . بقـدر إقامتك بها . . واعمل لآخـرتك . . بقدر بقائك فيها . .

إنك فى الدنيا ضيف . . وسوف تغادر المنزل غدا . . فالدنيا إلى زوال . .

فلم يقل له : ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِراً ﴾ [الكهف: ٦٩] . .

وإنما : من الصابرين . . من جماعة الصابرين الملتزمين . . فلن أكون فقط واحداً يتصف بالصبر. وإنما من مدرسة الصابرين . . التزم بمبادئهم ولا أخون عهدها . .

ومن شفقة الوالد وحكمته فى عرض القضية . . وبر الولد بأبيه فى مسألة حياة أو موت . . تكتمل الدائرة . . وتبرز قيم الأسرة لصالحة . . وما أحوج الأسرة اليوم إلى الإشفاق والحنان . غذاء لجيل المستقبل . . والذى سوف يرد الجميل وفاء ودعاء .

ولعلنا واجدون فى الآيات السابقة ما هو أصرح وأوضح لبقاء الأسرة . . متينة البنيان . . من خلال دعائه عليه السلام : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ . فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ١٠٠، ١٠١] . .

ففى سورة الصافات . . يذكر وصف «الحلم» مقترناً بالامتحان الصعب فى الآية التالية وهو عرض الذبح . . الذى لا يواجه إلا بفضيلة الحلم . .

بينما . . وفى سورة الحجر يقول تعالى : ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴾ [الحجر: ٥٣] . .

والعلم ناحية عقلية. وهكذا تتم صورة الذرية كما يجب أن تكون متسلحة: بالعلم . . والحلم . . .

وإذ تبشر الملائكة بالغلام العليم . . فى سورة الحجر . . فإن الله تعالى هو الذى يتفضل فيبشره بالغلام الحليم . . فهل يكون البناء الأخلاقى أثقل فى الميزان من مجرد الذكاء؟ أجل . . وإنه لكذلك . . وفى ذلك فليتنافس المتنافسون.

من سمات المتقين

وهذا السفـر المبارك له خصـائصه التى يتسلح بهـا المسلم وهو يعبر مـفازة الحياة . .

ومن هذه السـمات : الورع . . والخوف من الخـالق . . لامن المخلوق . والتنافس فى الآخرة.

أما عن الورع:

فقد كان ابن المبارك فى غزوة . فنزل عند نهر . بعد ما ربط فرسه . فلما توضأ وصلى . وجد فرسه قـد انفلتت من قيدها .وأكلت من الزرع. فقال : أكلت فرسى حراما ؟!! فـلا ينبغى لى بعد اليوم أن أغزو عليـها . . ثم تركها لصاحب الزرع . . واشترى غيرها . . وغزا عليها .

ولقد كـان لهم فى هذا المسلك الصـارم قاعـدة يتصـرفون طبق ما تمـليه عليهم:

ذات يوم : أثنى الشـيخ على تلمـيذ له مـعين . ولم يجد التـلاميـذ فى رفيقهم شيئاً يستحق الثناء . ثم أخبروا أستاذهم بذلك .

فقال لهم : سلوه هو . . ليجيبكم .

فقال التلميذ : أنظر إلى ما خفَّ على نفـسى . . فأتركه . وما ثقل عليها فأعمله .

فقال الشيخ : هذا ما يجعل قليل عمله كثيراً . . لأن له أجرين :

أ- أجر مجاهدته لنفسه .

ب- ثم أجره على العمل ذاته .

وفى ذلك : فليتنافس المتنافسون .

وإذا كان بين المتقين من تنافس .. فهو التنافس فى الخير .

{كان عبـد الله بن المبارك – رحمه الله – إذا صلى فى المسـجد . انصرف إلى بيتـه مسرعا . فـقيل له : مالك إذا صليت مـعنا . تنصرف . ولا تجلس معنا ؟ .

فقال : إنى أترككم . وأذهب مع الصحابة والتابعين

قالوا : وأين هم الصحابة والتابعون ؟!

قال : أذهب فأنظر فى علمى . فأدرك آثـارهم وأعمالهم. أما إذا جلست معكم فما أصنع ؟

أنتم تغتابون الناس . والبعد عن كثير من الناس أقرب إلى الله . .

وفِرّ من المغتابين فرارك من الأسد }.

عمر بن حبيب :

كان جالسـاً يوما مع عبده . . وفى بستـانه . . يأكلان التمر مـعا. . فلما سمعا الأذان . .أخرجا ما بفمهما من التمر . . ثم أسرعا . . لكن الغلام سبق سيده إلى المسجد . .

فقـال له سيده وهو يحـاوره : سبقـتنى إلي المسجد ؟!! أنت حـر لوجه الله!!

فلما عوتب فى ذلك قال : لوكان ألْفاً . . لأعتقتهم . . تقديرا منى لطاعة الله تعالى !!

فانـظر إلى صاحب البـسـتـان . . ومالك الإنسـان : لقد كـان المظنون أن تستفـزه شهوة التملـك والهيمنة. . فيـبقى على العبد لعـبة بين يديه ! ولكنك تشاهده وهو يأكل . .ومعه . . ومن نفس التمر . . وفى لحظة هى أجمل من

كل ما يملك الإنسان من حطام الدنيا . .

وحين يسبقه العبد إلى المسجد لا تأخذه العزة بالإثم . . حين يغلبه تابعه . . فيسبقه . . ولكنه يجازيه على الخطوة المتقدمة . . حريته !! فما أقل الثمن . . وما أروع الجائزة !

بل إنه كان مستعداً أن يعتق آلفا سبقوه إلى طاعة الله تعالى . . وإنها لنفوس تسعد بها الأمم . . حين توسع دائرة السرور لتشمل الناس جميعاً . .

ومن بين ما تعيه ذاكرتى : خروج أهل الدار كلهم أجمعين . . وراء الشاة إرادة الإمساك بها لما هربت من قبضة الجزار . . وكانت مظاهرة . . من صنع الكبار والصغار من أهل الدار .

ولكن . . وبعد قليل . . أذن المؤذن للصلاة . . فلم يخرج رب الدار إلى المسجد . وطبعا بقى الصغار . . فلم ينشطوا للنداء . اتباعا للآباء . وقلت لنفسى :

هكذا نميت فى صدور صغارنا الرغبة فى المسجد وقيمه بهذه المفارقة التى تقول لهم : إن هناك فى دنيانا ما هو أهم من الذهاب إليه . والتزود منه .

أما بعد :

فلم تكن قصارى وظيفة العبد أن يكون تُرسا فى آلة دوارة . . لم يكن دوره فقط أن «يعلف» البهائم فى الحظيرة . . أو يعد الطعام لأهل البيت . . ولكنه كان عزيزاً فى بيت سيده . . ينافسه فى العبادة . . وفى العلم أيضاً . . حين يحمل له كتبه . . ويطوف معه فى البلاد يزاحم ،العلماء بالركب . قال عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت – رضى الله عنه – :

«خرجت أنا وأبى نطلب العلم فى هذا الحى من الأنصار قبل أن يهلكوا . . فكان أول من لقينا أبا اليسر . صاحب رسول الله ﷺ . ومعه غلام له –

خادم – مع ضمامة من صحف » [١] .

الدنيا .. طريق إلى الآخرة

لم يكن المؤمن يكره الدنيا . . ولكنه كان يحبها . . شريطة أن تكون منافعها رصيداً يضاف إلى حسابه فى الآخرة . .

وهكذا كان المؤمن : المؤمن الذى كان إذا جاء . . كأنه هو قادم من دفن حميم . وإذا جلس . . جلس كأنه أسير من سيضرب عنقه .

لقد أوشك الخوف من الله أن يقتله لولا نسمة من الرجاء تهب عليه فيفيق . . هذه النسمة التى تجدد فيه الأمل فى مغفرة من الله تعالى وفضل .

ومع هذا الوجل من لقاء الله تعالى . . إلا أنه كان فى نفس الوقت يحب أن يعيش فى هذه الدنيا . . لا لذاتها . . ولكن لما يتزود فيها للدار الآخرة :

دخل سليمان بن عبد الملك مسجد دمشق . فرأى هناك شيخاً فقال له : يا شيخ . . أيسرك أن تموت ؟!

فقال الشيخ : لا والله ! قال سليمان : ولم ؟ . . وقد بلغت من السن ما أرى ؟! قال: ذهب الشباب وشره . . وبقى الشيب وخيره . فأنا إذا قعدت . . ذكرت الله . وإذا قمت . . حمدت الله . فأنا أحب أن تدوم لى هاتان الحالتان!

تباين الهدف:

عندما كان سليمان بن عبد الملك يحتضر أنشد وهو على سرير الموت :

إن بنىّ كلهم صغار أفلح من كان له كبار يتحسر نادماً أن ليس له ابن كبير ليكون وليا للعهد من بعده وكان عمر بن عبد العزيز يسمع . فصرخ فيه قائلا:

(١) { مسلم . من حديث جابر الطويل } .

لا . . لا . . ولكن الأمر على مـا يقول تعالى : ﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ﴾ .

أهل الدنيا .. وأهل الآخرة

فى تصريح للمدير العام لفندق كبير بدولة إسلامية قال :

بعض الضيوف من القادة يطلبون مستوى من الرفاهية مكلفا . . إلى جانب أن أحد هؤلاء القادة أحضر معه أثاثه الخاص . . ومعظمه من الكراسى التى وضعت فى جناحه الخاص .

فى الوقت الذى جاء بعض القادة بالطهاة المهرة . . لإعداد طعامهم فى بادرة هى الأولى من نوعها . .

بل إن بعضهم يطلب توفير التجهيزات الرياضية . . التى تمكنه من ممارسة هواياته الرياضية . بما فى ذلك إعداد حمام سباحة خاص به . .

ودون هؤلاء يتميز القادة الأفارقة ببساطه تجعل من استقبالهم أمرا محببا إلينا .

وإذا كانت الأشياء تتميز بأضدادها . . فإننا نقلب الصفحة لنطالع نموذجا آخر لواحد من قادة الإسلام الأوائل . . وكيف كانت همته مصروفة إلى الآخرة . . عازفة عن لدنيا . . باحثة عن كل ناصح أمين يعينه على أمر الله تعالى . .

هذا القائد هو : عمر بن عبد العزيز – رضى الله عنه – : فقد أرسل إلى الحسن البصرى – فور توليه الخلافة – يطلب وصيته . . فكتب إليه يقول : [. . . وإنما الدنيا إذا فكرت فيها : ثلاثة أيام : يوم مضى . . لا ترجوه . ويوم أنت فيه . . ينبغى لك أن تغتنمه . ويوم يأتى . . لا تدرى أنت من أهله أم لا . أما أمس : فحكيم مؤدب . وأما اليوم . . فصديق مودع . فخذ الثقة :

بالعمل . . واترك الغرور بالأمد قبل حلول الأجل . وإياك أن تدخل على اليوم همّ غد . أوهم ما بعده }

وهكذا . . يكون القلب غافلا . . فإذا هو بالموعظة يقظان . . وإن شئت قلت : إن القلب يكون أحيانا كصحراء جرداء . لا خضرة فيها . . وفجأة . . تجد فيها الموعظة وفى لحظة مباركة . . إنها تنعقد سحابا ثقالا . . ثم إذا بالأمطار تنهمر ليصير القلب من بعد واديا أخضر خصيبا .

وعلى هذا الأساس مضى عمر - رضى الله عنه - . . وكان فى سياسته لأمته قدوة طيبة أخذت بأيديهم إلى التى هى أقوم . .

وكان كما قال حاتم الأصم : {رأيت لكل إنسان صديقا . يفشى إليه سره . ويشكو إليه أمره . فقلت :

من صديقى ؟ فكل أخ وصديق رأيته قبل الموت . فأردت أن أتخذ صديقا يكون لى بعد الموت. فصادقت الخير . ليكون معى إلى الحساب . ويجوز معى الصراط . ويثبتنى بين يدى الله عزّ وجلّ }

وفى ضوء هذه النماذج المختلفة نتساءل :ما هى وظيفة المسلم فى هذه الحياة ؟ أن يفعل ما يبتغى . . أو ما ينبغى ؟

واقع الإنسان يؤكد أنه - رغم تأصل فطرة الخير فيه . إلا أنه يحب أن يركن إلى الدنيا . . يميل مع هواه حيث يميل . . إذا الريح مالت . . مال حيث تميل وذلك ما يشير إليه قوله تعالى :

﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴾ {الإسراء : ١١}.

بل إنه قد خلق من العجل : ﴿خلق الإنسان من عجل ﴾ {الأنبياء :٣٧}.

ثم هو كما تشير الآية الكريمة : ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ {الكهف : ٥٤}

﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا . إِلاَّ الْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ . وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ . لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ . وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ . وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ . إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ..﴾ الآيات من سورة [المعارج :١٩-٣٠].

وإذا كانت هذه . . خميرة . . الإنسان فى غيبة الإيمان فقد كان المتقون أيقاظا وهم يمارسون حياتهم . . على أساس أن الدنيا فى جيوبهم وليست فى قلوبهم : يملكونها . . ولا تملكهم .

فليس من خلق المتقين أن يتنافسوا فى الدنيا . ولكن هممهم الأكبر أن يلقوا ربهم طاهرين . . مغفورا لهم .

التقى عيسى ويحيى - عليهما السلام - . فقال يحيى لعيسى . استغفر لى . فإنك خير منى .

فقال عيسى : بل أنت خير منى : أنا سلمت على نفسى [والسلام على] وأنت سلم الله عليك : ﴿ وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم:١٥] .

وكانت لهم مدرسة تلح فى ممارسة الحياة على أوفى معانى الورع . استجلابا لهذا الغفران . . ولو كلفهم ذلك أثمانا باهظة :

رهن رجل ، صالح «سوارا» عند صير فى . ثم أخذ منه نقوداً . ثم جاء ليرد النقود . . فقدم له الصيرفى سوارين . . ليختار منهما سواره . . فقال الرجل : أنا فى شك من أمرهما . ولا أدرى . . فلعلى أخذت ما ليس لى بحق . . وإذن . . فالسواران لك . . إبراء لذمتى فقال له الصيرفي : هذا سوارك . . ولكنى أردت اختبار أمانتك فقال له : وأنا لا آخذ شيئاً سبق أن تردد قلبى فى قبوله!

وهو واحد من مـدرسة صنعت الورع صنعا بالتـحرى فى طلب الحق . . والفرار من الحرام . . حتى قال قائلهم :

لو سقطت قارورة خمر فى بحـر . . ثم جف البحر . . ثم ثبت فى قعره ثبات . . ما رعيت منه دابتى !!.

الخوف
من الخالق .. لا من المخلوق

لأن المتقى يدرك عظمة الله تعالى . فقد امتلأ قلبه بخشيته سبحانه . .وفى نفس الوقت . . يدرك ضآلة المخـلوق فى حسه . . ومن ثم هانت عليـه الدنيا بكل ما فيها ومن فيها . . فلم يعد يخشى إلا الله تعالى . . :

ألمت بخالد - رضى اللـه عنه - ضائقة نفـسية . فـذهب إلى رسول الله ﷺ . . فاشتكى إليه ما يلاقى . فعلمه ﷺ دعاء. .

فلما رطب لسـانه وقلبه به . . عادت إليـه نفسه الشاردة . . حـتى قال : والله ما أبالى أن أدخل على الأسد فى عرينه!!. بل لقـد دخل عليه فعلا . . وهان فى عينه اتكالا على الله تعالى :

رأى أبو مسلم الخـولانى . . جماعـة حاصـرهم الأسد . . فهـجم عليه قائلاً: والله إنك لكلب من كلاب الله . . وأنا أستحى أن أخاف شيئاً غير من خلقنى !

وأين هذا من «ابن أبـى لهب » والذى آذى الرسـول ﷺ فـدعـا الله تعالى: أن يسلط عليه كلبا من كلابه .

وبينما كـان فى سفـر مع جماعـة من رفاقه . . استشعـر الخوف . لأن محمدا ﷺ مجاب الدعاء فحصنه زملاؤه بما كان معهم من أثاث ثم أحاطوا به جمـيعـاً . لكن الأسد يجىء قدرا من قـدر الله تعالى ثم يتـخطى كل هذه

الحواجز . . ثم يقصده بالذات يمزقه شر ممزق !

ومن طريف ما يـروى هنا . . : ذهب «أبو الحسن الزاهد» إلى أحـمد بن طولون وقال له : أنت ظلمت الرعية !

ولم يتـحمل المسئـول نقد الرجل فـأمر باسـتحـضار أسد . . ثـم يجوع الأسد . . وبعد ذلك يطلق على أبى الحسن !

ولما جىء بالأسد . جعل يزأر . . ويتـقدم ويتأخر . . بينمـا العالم العابد الزاهد . ثابت لا يتحرك . ولا يبالى بالموت الزؤام الهاجم عليه . .

وبينما الجـماهيـر تشهد الموقف المثير مشـفقة وجلـة على الشيخ . . إذا بالأسـد : يسكن . . ثم يطأطىء رأسـه . . ثم يقـتـرب من أبى الحـسن . . ويشمه . . ثم ينصرف عنه !! وعندئذ هلل الناس وكبروا . . .

ولما استدعى ابن طولون أبا الحـسن قال له . . قل لى : فيم كنت تفكر . والأسد مقبل عليك ؟!

فأجابه قائلا : كنت أفكر فى لعاب الأسد : هل هو طاهر . أم نجس ؟!

فقال له : ألم تخف الأسد ؟ قال : إن الله تعالى قد كفانى ذلك!!

يحبون لقاء الله

لأن المتقى لا يسـتغـرق فى لذاذات الدنيا . . فهـو عابر سـبيل فيـها . . وأمنيتـه الكبرى أن يرحل عـنها إلى دار هى الحيـوان يلاقى فيـها الأحـبة . . محمدا وصحبه .

استدعى مـعاذ - رضى الله عنه - غلامه وقـال له : أخرج . فانظر هل طلع الفجر ؟ فقال الغلام : لا .

ثم مكث قليلا : فقال له : انظر هل طلع الفجر ؟ فقال : نعم .

فقال معـاذ . وهو يحتضر : مرحبا بالموت ! حبـيب جاء على فاقة . لا أفلح من ندم . اللهم إنك تعلم أنى لم أحب الحـياة لغرس الأشـجار . . ولا لجرى الأنهـار . . ولا لعمارة الدور . . والبناء القـصور . ولكنى كنت أحب الحياة لثلاث : لمزاحمة العلمـاء بالركب فى حلقة العلم . . ولصيام الهواجر . إذا اشتد الحر . . ثم لتعفير جبهتى لك فى التراب .

من حكمة الصالحين

دخل «طاوس » على صديق له مريض . فقال له صديقه : ادع الله لى .

فقال : اللهم اشف عبدك المريض .

ثم قال له : إنما دعوت لك . . لأنك سألتنى .

وإنما أدلك على من هو أولى بالدعـاء منى ؟ . . إنه أنت ! فلما تـعجب المريض . قـال له الحـسن : إنك تدعـو ربك . . من مرضك الـذى تحسـه . ولسوف تكون أكثر خضوعا لله . . ممن لا يعيش إحساسك.

الحياة الطيبة

الحياة الطيبة مصدرها القلب .

ولما كان القلب بين أصـبعين من أصابع الرحمن . . فـهو وحده سبـحانه مالك الحيـاة الطيبة . . فهو مانحـها بحكمته تعالى . يعطيهـا المؤمن . . فهو أحق بها وأهلها . . ويحرمها من ملك الدنيا . . أو ملكته الدنيا . . بينما قلبه هواء . .

يقول تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمـد : ٢] وصلاح البال هو : الحياة الطيبة .

إنهم يعملون الصالحات . . قاصدين بهـا وجه الله تعالى . . بينما غيرهم يعمل عمله الذى يصـير - كما قيل - لونا من المقايضـة أقرب إلى التجارة . . وقد يقبض يده عن العمـل مهما كان نافعا بل قـد يعارضه . . إذا تعارض مع مصلحته الشخصية .

ومن ثمرات العمل الصالح :

أن الله تعالى يهـيىء لصاحبـه حياة راشدة راضـية بما يبصره من أسـباب الفلاح . .

وبينمـا يتخـبط المراءون فى الظلام وفى عـمايـة الضلال لأن الله تعـالى حرمهم أسـباب هذه الهداية لسوء اختيـارهم . ترى المؤمنين يسعى نورهم بين أيديهم فإذا هم مبصرون راشدون واصلون إلى مرضاة الله تعالى .

إن المؤمن لا يعتمد على عمل هو مثله مخلوق لله تعالى . . لأن المخلوق لا يفعل للمخلوق شيئاً. ولكن العمل فقط وسيلة شـرعها سبحانه لنا . لتعبده بها .

قال ابن عطاء الله : [من علامات الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند الزلل] فالعبرة بالمعانى . . لا بالمبانى وقد يلبس إنسان الخيش. . وفى قلبه كبر فرعون !

القضية إذن :

لمن العمل ؟؟ لقد كانت خلافـة عمر - رضى الله عنه - : عشر سنوات بينمـا كـانت خلافـة أبى بكر - رضى الله عـنه - :سنتين . . ومع ذلك هو الفاضل . . . وعمـر هو المفضول . . وما فضل أبو بكر بصـلاة ولا صيام . . ولكنه فضل بشىء وقر فى قلبه وهو : حب الله تعالى .وحب رسوله ﷺ .

والمؤمن مكلف أن يطرح على نفسه ذلك السؤال : لمن أعمل ؟

فإذا كان عـملك لله تعالى .. فبها .. وطابت حـياتك .. وإلا .. فإن كانت الأخرى فالأمر على ما قـيل : {كالطعام : يكون شهيا .. ولكنه يجلب المرض . بعكس المراد منه } .

لماذا نكّرَ الحياة ؟

ولكن لماذا جـاء لفظ الحـياة منكرا فـى قوله تعـالى ﴿حياة طيبة﴾ يقول البصــراء: كان ذلك التنكيــر إشارة إلي تفـاوت الدرجات : فـقد تطيب حـياة شخص .. لنقص فى دنياه: إنه يذكر الثواب .. ولا يهمه ما يفوته من دنياه. ثم إن طيب الحياة متعلق بالقلب .. والقلب غيب لا نعلمه .

معنى الرضا

ومن معانى الرضا:

ألا يشعر المؤمن بنقص يجر عليه ألم الفـوت. ثم إنه لا يحس باستحقاقه نعمـة واحدة .. ولو عبد الله تعـالى أبد الدهر. ولكنها طبيعـة الإنسان : إن لنفسه فـى كل لحظة أملا.. ثم هى تنتظر الجزاء عقب العـمل . وهى لا تلجأ إلى الله تعالــى إلا عند الشدة.. ولكن أمر الكون ليس عـلى مزاجهـا : فالله تعالى : بصـفات العطاء يعطى .. وبصـفات الجلال يقـبض ويمنع .. والكل بمقتـضى حكمته . ومـا علينا إلا التسليم . والرضـا . ولكن الناس ما يزالون مختلفين فى تعاملهم مع الدنيا :

فبعضهم : يعب من نعيم الدنيا .. يشبع نفسه .. ينعمها .. أو ينومها

ولكن الراشدين ينـظرون إلى الدنيا كأنهـا ميتـة : لا يأكل منها .. وإذا أكل .. يأخذ منها مضطرا غير باغ ولا عاد.

[من سمات المنافقين]

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً . مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا . إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا . إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا . مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٢ -١٤٧].

تمهيد :

إذا كانت العزة للمؤمنين . . اتكالا على الله تعالى . . وثقة به سبحانه . . فإن من مقتضيات هذه العزة أن يكون المؤمن فى الدنيا رأسا . . ولا يكون ذنبا .

إن مجرد الحياة التى يدب بها على الأرض لا تكفى لإنجاز مطالب الإيمان . . وإنما هى الحياة الغوَّارة بالنشاط . . لا تلك التى قُتلتْ بالجمود . والحياة التى تمضى على سواء الصراط قُدُما حتا تتسنم بها القمة العالية . . على ما يقول الشاعر :

ونحن أناس لا توسط بيننا لنا الصدر بين العالمين أو القبر

تهون علينا فى المعالى نفوسنا ومن يخطب الحسناء لم يغله المهر

ذلك بأن المسلم يعتقد : أن القرآن : حجة له . . أو حجة عليه . . ومن أجل ذلك . . فهو يكره الموقف المائع . .

فلا يقول : لا لى . . ولا على ! وهو الاحتمال الثالث . . لأن ذلك لعبٌ على الحبال . . فلا يليق بكرامة الرجال !

فإما حياة تسر الصديق - وإما ممات يغيظ العدى .

وآيات القرآن الكريم تؤصل فى المؤمن هذا المعنى . .

ومن وسائلها . . بيان سلبيات النماذج الرديئة التى تقتل فى النفوس قيمة الطموح . . وفى مقدمة هذه النماذج : المنافقون . .

المنافقون ، الذين يخادعون الله ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ [الفتح : ٦] وهو خادعهم هؤلاء الذين لا يخافون إلا بعيونهم . . حتى إنهم لو وجدوا جبارا يقول للأرض لا تتحركى . . وللماء . . توقف . . لم يجرءوا على رد كلامه مع أنه لا يقدر على ذلك . . ولكن اللطيف الخبير . . القادر . . القاهر . . وعندما يحاول عبده الهزيل الضئيل أن يخادع . . فإنه تعالى يتركه يهذى .

واجب المسلم

فى ختام الآية السابقة يقول تعالى :

﴿ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ [النساء : ١٤١].

وإذ يعدنا الحق بحمايتنا من كيدهم . . فحجتنا أبدا غالبة . . مهما طال بها المدى . . وذلك يُحملنا مسئولية أن تكون أهلا لهذه الحماية محتفظين بشخصيتنا قوية . . فلا نتشبه بالمنافقين فى مذاهبهم وأخلاقهم . . لأن ولى المنافق منافق مثله . وشبيه الشىء منجذب إليه . .

وموالاة الأعداء أدق أدلة النفاق. الخداع . . صناعة المنافقين يحاول المخادع بأمر يبديه أن يغطى أمرا يخفيه .

وهكذا الضب : إنه يجعل لجحره بابين حتى يتمكن من الهرب . . بل إنه سحر العقرب لخدمته إذ أوقفه على مدخل جحره فكان باب الضب وحاجبه !! وهكذا المنافقون : يخادعون . . ويخادعون رسول الله ﷺ والمؤمنين . . بإظهار خلاف ما يبطنون ظانين أن خداعهم سائر بهم إلى ما يرجون من

السلامة.. بيد أنهم فى نفس اللحظة فى قبضة الله تعالى والذى ينصر رسول الله بهزيمتهم :

وهو خادعهم

فلم تقل الآية الكريمة : سيخدعهم .. ولكنه تعالى خادعهم .. الآن .. وإلى الأبد .. وفى الوقت الذى يظنون فيه أن نفاقهم مانعهم من العقاب .. ويتركهم الله تعالى فى خداعهم .. لا ينبههم بالقوارع .

وإذا بهم فى قعر جهنم .. فى الدرك الأسفل منها ..

فهم فى الحقيقة يخدعون أنفسهم .. من حيث لم يضروا بالنفاق أحدا . إلا مصالحهم ..

من خصائص المنافقين

ومن رحمة الله تعالى أن يحدد بعض ملامح المنافقين حتى يكون المسلمون منهم على حذر .. ومن هذه الملامح :

أ- إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس . وعند الأذان للصلاة.. إن وجدوا مهربا هربوا .. وإن لم يجدوا .. دخلوا فى الصفوف.. متثاقلى الخطى ..

ب- ولا يذكرون الله إلا قليلا . لماذا ؟ لأنه لا دافع لديهم من رغبة .. ولا رادع من رهبة .. لا أمل فى ثواب .. ولا خوف من عقاب !

ذلك بأن قوة العمل على قدر قوة الدافع .. ولما كان الدافع هنا هو مرآة الناس والخوف منهم .. لا جرم كان ضعيفا لا يحمل على عمل أصيل .

وإذن .. فقد أمكن الله المؤمنين بالحس البصير من كشف خبيئة المنافق بهذه العلامات : على حد قول الشاعر :

عـــيناك قـد حـكتـا مـبـيـتك كـــيف كنت ؟ وكـــيف كـــانا ؟
ولـرب عـين قـــــــد أرتـك مـبـيـت صـاحـبـهـا عـــيانا !

يخربون بيوتهم بأيديهم

[وهذا شأن المنافقين فى كل ملة وأمـة : يخادعون . ويكذبون. ويكيدون ويغشون . ويتولون أعداء أمتهم . ويتخذون لهم يدا عندهم . يمتون بها إليهم إذا دالت الدولة لهم . ولكن لا يخفى على كل من الأمتين حالهم :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

فهم يهدمون بناء ثقة الناس بهم . . يهدمونها بأيديهم.

وكأين من منافق كانت خيانتـه لأمته ومساعدة أعدائها عليها سـببا لهلاكه بأيدى هؤلاء الأعداء أنـفسهم . والذين يقـولون : لو كان فى هذا خـير . . لكان قومه أولى بخيره منا ونحن أعداؤه وأعداؤهم.

فإن كان قد خانهم . فستكون خيانته لنا أشد .

والناس يقرأون أخبار هؤلاء الأشرار ولا يعتـبرون . ويكثر هؤلاء المنافقون فى طور ضعف الأمة وقوة أعدائها لأنهم طلاب المنافع . ولو فـيما يضر أمتهم والناس أجمعين وإنما - فى مذهبهم - تلتمس المنافع من الأقوياء . وإن اقترن التماسها بالعار . والذل والصغار] أ. هـ.

وإنهم لأهل هذا المصـير بما قدمـوا لأنفسهم من خـيانة يذوقـون من بعد جـزائها . . فى الوقت الـذى يكون فيـه الصادقـون فى الفـردوس الأعلى بما صدقوا الله مـا وعدوه . فلن تكون محبا لله ولا للرسـول إلا إذا آثرت كلامه على كل كـلام . . ومجـالس حـديثه على كل مـجلس . . ورضـا على كل رضاه. . أما الصلح ظاهرا . . والخصـومة باطنا . . فذلك وإن يكن منكرا فى الدين فإنه فى المروءة بغيض.

أضعف خلق الله وأذلهم

وإذا كانوا يقولون : إن الحجر المتـحرك . . لا ينبت عليه العشب . . فإن المنافقين بترددهم أضعف من أن يحسموا قضاياهم بالقرار القوى الصريح . .

إنهم كما وصفهم خالقهم:

﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾ [النساء: ١٤٣]. .

إنهم كـذابون . . لصـوص : يسـرقـون عقـولنا . . يحلـفون من غـيـر مستحلف . . صادرين فى كل ذلك عن إحساس بالمهانة . . لا يغادر نفوسهم .

ويكفى المنافقين هوانا أنهم مطرودون حتى من قـبل الكفار الذين يرفضون أن ينتسبوا إليهم . . حتى ظلوا هكذا فى ريبهم يترددون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . . لا إلى المؤمنـين . . ولا إلى المشـركين . . ذلك بأن دواعـى الدنيـا متغيرة متقلبة . . فهم من أجل ذلك متغيرون متقلبون . .

أما المؤمنون فهم ثابتون مطمئنون :

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ [إبراهيم :٢٧].

ويوشك أن يكون منهم من تصحبه ساعات . فلا تسمع منه تحميده ولكن حديثه عن الدنيا . . ومن ثم . . فلن يقبل الله تعالى صلاتهم ولا ذكرهم . . ذلك بأن ما رده الله تـعالى . . فكثيـره قليل . وما قبله سـبحانـه . . فقليله كثير . .

أولياء المؤمنين

إن الطيور على أشكالها تقع . . ومن ثم فَوَلِيُّ ، المؤمن . . مؤمن مثله . . ولن يكون المنافق وليا للمؤمن أبدا . .

قـال رجل لابن عبـاس - رضى الله عنهـمـا -: ادع الله أن يغنينى عن الناس .

فقال له ابن عباس : إن حوائج الناس تتصل ببعضها كاتصال الأعضاء .. فمتى يستغنى المرء عن بعض جوارحه ؟

ولكن قل : اللهم اغننى عن شرار الناس !

ومن هؤلاء الأولياء : الربيع بين خـيثم .. والذى أقامه الله تعـالى حجة على المنافقين الذين لا يقومون إلى الصلاة إلا كسالى :

كان - رضى الله عنه - يتـهادى بين رجلين . عند الصلاة فـقيل له : إن الله تعالى رخص لك .

ولكنه كان يقول : ولكنى سمعته يقول : حى على الصلاة ، وكأنما النداء موجه إليه شخصيا فإذا سمعتم فانهضوا .. ولو حبوا .. ولو زحفا !!

وهكذا الولى : يستـمسك بالحـبل المتين .. فى أمة واحدة .. يتـماسك بنياتها فى مواجهة الخطر ..

وأين من هذا الطراز الفـريد منافق : لا يملك مـن قيم الدنيـا .. قـيمـة الصراحة ولا يحوز من قيم الآخرة .. قيمة الإخلاص!

الجزاء الرادع

لكن .. لماذا كـان جزاء المنافقين رادعـا .. يحطهم فى قعـر النار وبئس القرار ؟

ذلك بأنهم تركـوا الكفر .. إلى مـا هو أخبث منه ثم كـانوا يستـهزئون بالمؤمنين ..وطالما لقى المسلمون منهم العنت .

ومع فداحة الجرم فإن باب التـوبة مفتوح بين أيديهم .. ولكن .. لما كان

جرحــهم غائرا . . وكــانت علة النفاق ضــاربة الجذور في قلوبهــم . . لما كان الأمر كذلك كان لابد من صعوبة الامتحان . . حتى تكون عودتهم راشدة . . تصفي كل ما في أنفسـهم من صور الخداع . والحنين إلى سالف أيامهم . .

من أجل ذلك تستثني الآية الكريمة من الدمار من استجمع هذه الشروط :

من تاب . . عن القبـائح ثم أصلح ما أفسد . . بالعـمل الصالح . ثم وثق صلته بربه تعــالى . . صادرا في كل ذلك عن قاعدة الإخــلاص . ومن يفعل ذلك فأولئك مع المؤمنين .

لم تقل الآية الكريمة : فأولئك مؤمنون . . وإنما تقول : «مع المؤمنين» .

إن المؤمنين : قـادة . . متـبعـون . . لأنهم سابقـون بالخيـرات . . ومن تشريـفهم أن يكونوا في الإيمان رأسـا . طليعـة الركب المؤمن . . والناس لهم تبع .

وعودة المنافقين بالتوبة . . تسلكهم في جمـاعة المؤمنين . . وعفا الله عما سلف . . وإلا . . فمـا يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمـنتم ؟ إن الله تعالى يأمركم بأشيـاء . . فيها صلاحكم ثـم ينهاكم عن أشياء . . فيـها دماركم . . فمن أبصر فلنفسه . ومن عمي فعليها . .

من فعل ما أمر به . . وانتهى عــما نهى عنه . . فلا يليق بكرم الله تعالى وعدله أن يعذبه . .

إن البشـر ينتقمون . . تشـفيا . . أو ثأرا . . أو لدفع ضــرر . . أما الحق سبحانه وتعالى فهو الشاكر العليم . . الذي يعطي . . ثم يشكر . .

فكيف بالمخلوق . . الذي يعاند . . ويجـحد . . ولا يشكر . . بينما هو الضعيف الهزيل المغمور بنعمه تعالى ظاهرة وباطنة ؟

وما على المؤمن إذا قصرت يداه عن المكافأة . . أن يطول لسانه بالشكر :

أن يخالص المؤمن . . ثم يخالق الكافر والفاجر . . فإن الفاجر يرضى منه بالخلق الحسن . .

مهاجرون .. إلى ربهم

بينما كان الغـلمان يتسابقون . . انتـبذ الشيخ منهم مكانا قصـيا . . وعزّ على واحد من المسلـمين أن يرى الشيخ الوقور مـعزولا . . فاقـترب منه يريد مؤانسته . . ليذهب بوحشته . .

ولكن الشيخ بادره بقوله : بل ذكر الله أولى !

فقال الرجل : جئت لأونسك . .

فقال الشيخ : عندى ما يشغلنى !

فلما سـأله الرجل عمن فـاز من هؤلاء الشباب المتـسابقين قـال الشيخ : السابق من غفر له !!

ولم يكتف بذلك . . لكنه نهض مفارقا المكان قائلا : رب . . ما أكثر ما يغفل عبادك عنك !! وهكذا كان الاستغفار أملهم . . وكان تحريه عملهم.

ومهما تســابق المتسابقون . . وفاز الفائزون . . ومهـما تحدث الأعلام . . وركز الأضواء على الذين يحوزون قصب السبق فى مجال ما . . فإن الحصول على القبول من الله تعالى . . يبقى الأمل الأكبر . . والهم الأعظم . .

وتبقى اللحظة الـتى يكون المسلم فيهـا . . فى عين الله تعالى مغـفورا له مقبولا . . تبقى هى أمنية العمر . . والتى دعت أحد الصالحين ليقول :

إذا خرجت من بطن أمك ساعة الميلاد تبكى . . بينما أهلك يضحكون. . فاحرص على أن تكون يوم موتك مسروراً . . وإن بكى حولك الباكون !!

أهمية الاستغفار

يقولون : إن الاستغفار سيد الأذكار .

فأنــت أحوج إلى قطعــة الصابون تنظف بهــا ثوبك . . من حاجــتك إلي البخور . . من أجل ذلك كانت وصاتهم : استغفروه . . قبل أن تذكروه .

وكان من هؤلاء الفــاقهين ناس كان الاستــغفار همــهم وعملهم . . منهم ذلك الصوفى الذى فكر طويلا في قضيته الأولى والأخيرة . . وهى :

كيف أطرق باب الله تعالى . . ليفتح لى ؟ بالصلاة . لكن طابور المصلين طويل !

بالصوم ؟ أيضاً إن طابور الصائمين طويل . .

إذن . . فبالحج؟ ولكن الزحام فى الحج شديد !!!

إذن فما هو السبيل؟: السبيل هو: التذلل. . والاستعطاف : الاستغفار. . وقد فعل .

ولقد بلغوا بالتــذلل منتهاه حين قال فاتح الهنــد العظيم : اللهم اغفر . . لمحمود . . . الكلب !!

يقــول ذلك عن نفــسه . . فى درس بلــيغ يهز به وجــدان جنده حــتى لا يغتروا . .

ورحم الله صلاح الدين : فلم يــكن يبدأ القتال إلا وقــتما يعــتلى خطباء الجمعة المنابر . . حتى إذا دعوا له نصره الله تعالى بدعائهم !

لم يكن الجهاد فى حسهم سبــيلا إلى رتبة أو جائزة . . وإنما كان طريقهم إلى جنة يحاولون أن يدفعوا بالجهاد ثمنها . .

ولله درُ ذلك القائد المسلم الذى وقف على مشارف الهند عند فتحها :

فقال لخادمه «إياد » تأخذ أصنام الذهب هذه من الهنود .. ثم ترجع ولا تعود .. ورفض الخادم الأبى قائلا: لا .. حتى يقول الله تعالى : هذا مكسر الأصنام !!

وإذ يكون ذلك الإباء .. وهذا الزهد على مستوى العبيد والخدم .. فكم يكون هناك فى الطبقة الأعلى ؟!

الطريق إلى مرضاة الله تعالى

ولقد كانوا يسلكون طرائق شتى .. تقودهم فى النهاية إلى الباب المفتوح:

كان الرجل الراغب فى التوبة يذهب إلى حيث يكون الطائعون .. فإذا هم مطمئنون .. وسعداء .. رغم ما يعانون من صنوف البلاء .

بينما العصاة فى أرقى المناصب .. والمال يجرى بين أيديهم أنهارا .. لكنهم مع ذلك ممزقون .. يعيشون القلق والضياع ..

ومن أجل ذلك .. يأخذ المسلم سبيله من وراء الطائعين .،. على أمل الوصول إلى مثل ما وصلوا .

محاسبة النفس

وكان للمسلم فى كل ليلة مجلس يحاسب فيه نفسه : يحصى حسناتها .. كما يعد سيئاتها ..

وقد يعاتب فى هذا . فيقول : هكذا يفعل تجار الدنيا .. ولا ينبغى أن يكون تاجراً لدنيا أحرص على ربحه .. منا !.

الذنوب

عدونا اللدود

كان سلفنا الصالح يعتبرون الذنوب عدوهم الأكبر .. ومن ثم جاهدوا أنفسهم حتى يفطموها .. قبل أن توردهم المهالك ..

وقد منحهم ذلك بصيرة كاشفة عما خفى على غيرهم . .

حتى قال قائلهم فى محاولة للتخلص من الذنوب . . ليكون الطريق إلى القبول ممهودا . . قال : لا تقل ظلمنى فلان؟ . وإنما قل : عصيت الله تعالى فَمكَّنَ سبحانه هذا الظالم منى لأنه عن طريق معصيتك أخذ بناصيتك . : يعنى : إنه لم يغلبك . .

ولكن حقيقة الأمر : أن إذا عصيته تعالى . . وكلك إلى نفسك . . تخلى عنك فتمكن منك عدوك ولو لم تهن عليه سبحانه . . لما تركك، تعصى!!

وهو منهج سليم فى التفرغ لملاقاة النفس ابتغاء تطهيرها من ذنوبها . . لتسلم لنا الخطوة الأولى على طريق الإصلاح . .

وسبيلنا : أن نقلع عن الذنب . . مشفوعا ذلك بدوام الاستغفار . . ومن بعد الاستغفار تتحقق آمالنا .

نقرأ فى هذا : قال رجل للحسن - رضى الله عنه - : ادع الله لى . . فأنا فقير . . فقال له : استغفر الله . فلما اشتكى إليه رجل أنه لا ينجب . . وثالث : أنه بستانه أصيب بالجفاف - كان جوابه هو : استغفر الله . .

ولكن الغافلين عن سنن الله تعالى فى الكون . . الساهين عن ربط المقدمات بالنتائج يتساءلون . . وما علاقة هذا بذاك ؟

ولكن ابن المبارك يلفت أنظارهم إلى أنه لم يأت بذلك من عنده . . ولكنه نص القرآن الذى يتلى . . وذلك قوله تعالى :

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً . وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً﴾ [نوح : ١١-١٣].

وقوله تعالى ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود : ٥٢] .

منهج فى معاملة الخاطئين

ومن تمام استغفارهم .. أن يستغفروا لغيرهم .. ولا يتعجلوا فى تجريمهم..

يقول الإمام على - رضى الله عنه - :

{ لا تعجل فى عيب أحد بذنبه . فلعله مغفور له ولا تأمن على نفسك صغير ذنب .. فلعلك معذب به فليستر المسلم عيب غيره .. لما يعلمه من عيب نفسه.. وليكن الشكر شاغلا على معافاتك مما أبتلى الله به غيرك . ألا إن رحمة الله تعالى .. أوسع من أن تحد .. وإن نعمه سبحانه سبحانه أكبر من أن تعد ..

وإذن . فلابد من متنعمين .. كما أنه لابد من خطائين .. تسعهم رحمته سبحانه تعالى .. ونحن مع هؤلاء الخطائين أساة .. لا قضاة . ومهما كان حجم الخطأ .. فإن رحمة الله أوسع .. وغفرانه أعظم .. ومهما كان المخطئ فإن فى كيانه بذرة الخير ..

إن جهاز الاستقبال قد تطفئه .. ومع ذلك يبقى داخله مصباح مضىء ! ولكنها السرعة أحيانا فى التصور .. ثم فى الحكم .. والنتيجة معروفة : فمن أسرع الجواب .. فقد جانبه الصواب .

من هدى الرسول

كان ذلك من سنته ﷺ فى معاملة الخطائين :

جاءه ما عز معترفا بذنبه .. بل وملحاً فى رجاء حده .. ومن إلحاحه وعمق رغبته فى التوبة : أنه أتى النبى ﷺ من أمامه .. وعن يمينه .. وعن شماله .. وفى كل ذلك يقول له صراحة : إنى زينت !

ولكنه ﷺ رغم هذا الاعتراف الصريح لم يتعجل إقامة الحد عليه .

ذلك بأنه لا يريد أن يزيد المنحرفون واحداً .. لأن ذلك على أى حال إضعاف للإسلام الذى يجب أن يظل قويا بقوة المنتسبين إليه .

وفى سبيل ذلك : يسأل ﷺ أهله .. لعله أن يكون قد مسه جنون .. ثم يطلب أصحابه أن يشموه فلعله أن يكون سكران ! ولم يكن به من جنون ولا ضلال .. ولم يشم الصحابة منه شيئا .. وإنما شموا الإيمان الملتهب .. وسمعوا الصرخة المكبوتة النازعة إلى الخلاص .. بالتخلص من الحياة ذاتها !

جهود الدعاة

ومضيا مع سنته ﷺ فى إعانة المسلم على نفسه ليعود الهارب إلى ربه.. كان لهم منهجهم السديد فى العود بالمذنب إلى الله تعالى من جديد :

سأل رجل ابن أدهم الوصية .. حتى لا يتورط فى الذنب .

فكان بينهما ذلك الحوار :

قال له ابن أدهم : إن أردت أن تعصيه تعالى .. فلا تأكل رزقه .. وإن أكلت رزقه وسكنت ملكه .. فاعصه فى مكان لا يراك فيه ..

كل ذلك والرجل يقر باستحالة ألا يأكل من رزقه .. وألا يسكن فى ملكه.. وألا يراه سبحانه وهو يعصيه أولا يعصيه ..

وعن طريق هذا الحوار الهادف .. بعث ابن أدهم فى الرجل وعيه .. فرتب المقدمات .. التى وصلت به إلى النتيجة الحتمية وهى : طاعة الله تعالى ورفض عصيانه سبحانه .

وهو نفسه الدرس الذى ألقاه الأستاذ على تلاميذه ، هذا الدرس العملى الذى يغنى عن ألف كتاب ..

وذلك عندما أراد الأستاذ أن يعمق فى كيان تلميذه شمول علم الله تعالى.. فقال له :خذ هذه الدجاجة.. واذبحها فى مكان لا يراك فيه ربك !!

ومـا أكثـر الحقـائق الغائبـة فى زحاج من شـهوات الدنيـا . . ومشـاغل العيش. . والتى يفتش عنها الفاقهون . . آخذين بيد الغافلين إلى الوعى بها. .

وذلك قول أحد الصالحين : عجبت لمن ابتلى بالخوف . . كيف يغفل عن قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ ؟ [آل عمـران : ١٧٣ - ١٧٤] .

وعجبت لمن يمكر الناس به . كيف يغفل عن قوله تعالى :

﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ . فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴾ ؟ [غافر : ٤٤- ٤٥].

وعجبت لمن ابتلى بالضر كيف يغفل عن قوله تعالى :

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾؟ [الأنبياء :٨٣-٨٤].

وعجبت لمن ابتلى بالغم . . كيف يغفل عن قوله تعالى :

﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ ؟ [الأنبياء ٨٧-٨٨].

وما أكثر العجب ممن يركن إلى الدنيا ولم يقرأ قوله تعالى :

﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا . فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا . أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾ ؟ [الكهف : ٣٩ - ٤١].

ويعنى ذلك : أن الدليل موجود .. ولكن العقول فى إجازة .. ولكن الداعية الناجح قادر عن طريق هذا الحوار أن يجعل الغافل يشترك معه فى صنع القرار..

والقرار هنا : ترك العصية .. بل والفرار منها إلى الله تعالى ..

ولله درُّ .. دعاة حكماء .. استخرجوا بالحكمة ما فى النفس من أسرار.. فخرجوا بالمدعويين من الجهل المبيد .. إلى النور المبين ..

فكانوا معا على طريق الدعوة ذكرى : تضوع .. وأبدا .. لا تضيع !!

من آفات التسرع

وهكذا - وبالأناة - نخرج كنوز النفس الدفينة .. فرارا من العجلة وما يترتب عليها من خسران ومن هذا الخسران ما يشير إليه ذلك الموقف : تفقد الرجل حمامة فى برجه .. فلم يجد حمامة معينة..

وفى الليل إذا سجى .. تربص .. ليضبط سارق الحمام .. وفجأة وجد البومة تخرج حاملة فى فمها شيئاً .. فأطلق عليها رصاصة فماتت .. ثم اكتشف فجأة أيضاً أن البومة كانت تقبض على فأر هو نفسه سارق الحمام ..

ألا إنه التسرع الذى يفقدنا الرؤية الكاشفة .. فنظلم أنفسنا .. قبل أن نظلم غيرنا .

وهكذا نحن اليوم:لقد طالت أقوالنا . وقصرت أعمالنا.. تراخت الإرادة المصممة على تطهير النفس وتطهير البيئة من هذه الموبقات التى تسد الطريق أمام حركة الإصلاح ..

إننا نردد مع المؤذن : لا إله إلا الله .. لكننا لا نحمل أنفسنا مسئولية الالتزام بمضمون هذه الشهادة بطاعة الله تعالى والفرار إليه ..

وترتب على هذا الإهمال أن انتشر فى البيئة من دخان الذنوب ما لوثها..

فلم يعد فيـها ما يذكرنا بالله تعـالى . . فضلا عن تعلقنا بكل مـا يلبى حاجة غرائزنا . .

وتذهب دروس الدين فى المدرسة بددا . . بهذا الإهمـال . . وبهذه العلاقة المقطوعـة بين الأقوال . . والأعـمال . . هذه القطيـعة التى تعـمقـها الـقدوة السيئة . . والمتمثلة فيما رأيت على مستوى الأسرة . . وعلى مستوى الإعلام . . فيما يرويه ويعـرضه من مثل قول الوزيرة المسئولية فـي دولة أجنبية والتى قالت لزميلها الوزير فى بلد ملتزم : لن تنجو فى مـواجهتكم للمتطرفين . . ما دمتم تسمحون للنساء بارتداء الحجاب ! منطلقة من أهمية العرى والإباحية والتى هى فى نظرها شارة التقدم . .

وإنها لسـائرة على نفس الطريق الذى سبقهـا عليه من كان يشرف بـنفسه على حمام سباحة . . يختلط فيه الجنسـان . . ثم يعلن فخورا : الآن تخلصت أمتنا من أعدائها !!

ومن طريف ما يروى أن وفدا من شباب هذه الدولة الملتزمة يسافر إلى هذه الدولة . . فيسأل طالبا هناك : كيف حال البدع عندكم ؟؟

ويجيبه الطالب فى الأمة «المتحررة!» :

أية بدع تسأل عنهـا . . بعد مـا رأيت الحدائق وما يفـعل فيهـا . . جئت تسأل عن البدعة . . وكل ما فى الأمة بدعة !!

ولله درُّ القائل :

يا عجل الله بالعذاب لعامرات البيت بالخراب !!

وقى الله أمتنا من كل سوء . . وحفظ عليها حياءها وعفتها .

واجب الأمراء

نامت الهـرة على جـزء مـن ثوب عـبـد الرحـمن بن صـخـر . . . أبى

هريرة . . - رضى الله عنه - .

ولما أذن للصلاة لم يشأ أن يفزع الهـرة . . فقص الجزء الذى تنام عليه . . ثم نهض إلى صلاته .

إن الإنسان كما وصفه ربه عزّ وجلّ . . نبات . . . :

﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح - ١٧] .

وإذا كان النبات يمتص من عناصر الأرض مـايناسبه . . فنحن مطالبون أن نكون صـادقين مع أنفـسنا . . ثم مع أبنائنا لنقـدم إليـهم من تاريخنا أفـضل العناصر الـتى تجعل منهم لنا عمـرا ثانيا . . يمثل هذا الموقف . . ثم نـسلحهم لمواجهة الانحراف قبل أن يسرى إليهم بالعدوى . .

ولنا فى عمر - رضى الله عنه - القدوة الحسنة :

جاءه فتى عابث يقول له : كيف توفقون بين قوله تعالى : والصافات . . والمرسلات . . والذاريات ؟

وقد كـان رد عمر - رضى الله عنه - على طريقـته : أحضر حـزمة من عرجون النخيل خضراء . ثم رش عليـها من الماء . فلما أثقلت أمر بضربه بها حتى أغمى عليه !

وأمر الخليـفة أن يرشوا عليه مـن الماء . . إنعاشا له . . فلما أفـاق قال : أصبحنا . . وأصبح الملك لله !

ولكن الخليـفة الحـازم لم تأخذه رأفـة فى دين الله . . فقـرر أن يكرروا ضربه . . حتى أغمى عليه . .

فلمـا أفاق هذه المرة قال لـعمر : يا أمـير المؤمنين : إن كنت قـاتلى . . فاقتلنى . . وإن كنت تريد دوا ئى فقد داويتنى !!

فقال له الخليفة الحكيم الحازم: اذهب .. ولا تجالس مسلما .. ولا يجالسك مسلم عاما .. أو نصف عام .. حتى تثبت توبتك النصوح .

إن درّة عمر لم تكف فى ردع هذا المتجرئ على كتاب الله .. من أجل ذلك قرر أن يضربه بحزمة من العرجون الرطب .. ولما دخل الفتى من العقاب فى ليل بهيم . وظن أنه الفراق .. كان من حزم الخليفة أن يضرب والحديد ساخن حتى يقضى على آخر معقل للعبث فى نفس الفتى العابث ..

ثم تدخل بحكمته بعد حزمه ليفرض عليه .. العزل .. فلا يدخل دار مسلم .. ولا يدخل داره مسلم .. بل لا يجالس أحدا حتى تصح توبته ..

وهذا هو دورنا فى ضرب «المربوط» ليخاف «السايب» صيانة لأبنائنا من خطر يتهددهم .. ومن خطورته أننا قد لا نراه .. ولكنه يسرى فى القلوب كالداء الخبيث ! وقد يستعلن المنكر أحيانا .. متحديا .. فخورا .. وعندئذ فواجبنا أن نتصدى لنزعة الشر التى تريد أن تفرض نفسها .. فرضا ..

وإذا استطاع الشيطان المريد أن يغوى فردا .. فلا يليق بالأمة أن تتركه ليغوى أمة بهذه المجاهرة الفاجرة !

أما بعد .. فاستعدى يا نفس .. فإنك على وشك الرحيل

استعدى يا نفس للموت واسعى ... لنجاة .. فالحازم المستعد

إنما أنت مستعار وسوف ... تردين . والعوارى ترد

أنت تسهين والحوادث لا تسهو ... وتلهين والمنايا تَعُد

أى ملك فى الأرض بل أى حظ ... لامرىء : حظه من الأرض : لحد

لا ترجى البقاء فى معدن الموت ... ودار حتوفها لك ورد

كيف يهوى امرؤ لذاذة أيام ... أنفاسها عليه فيها تعد ؟

قصة زواج ناجح

تمهيد :

النفس . والهوى . والشيطان . والدنيا . . كلها تزين الإثم . . وتغرى بالاسترسال مع الدنيا بمباهجها . . وانحدر الإنسان إلى هذا الدرك سهل . .

فالغرائز غلابة . تجنح به دائما إلي الهبوط منحدرا إلى الرذيلة . . الذى تطمس فيه ملكة التمييز . . حتى إنه ليرى حسنا . ماليس بالحسن.

ولو شاء الله تعالى لرفعه إلى أعلى . . ولكن الإنسان . . لم يتجه إلى هذه الهداية وإنما : أخلد إلى الأرض . . واتبع هواه . . فكان جزاؤه الخسران . . الذى لا يبقى في داره ثاغية . . ولا راغية !

موقف المسلم

ولكن المسلم الذى لم يخلد إلى الأرض . .ولم يتبع هواه . . يفر من هذا الحصار المضروب عليه . . محلقا فى السموات العلا . . متغنيا بهذا الشعار :

{ إن النهار لنا . . أذن مؤذن النهضة فينا : حى على الفلاح . . فقمنا . . وصاحت ديكة الفجر تطرد بقايا النوم من عيون الزهر . . والمستقبل لنا : للذين أدركوا أن لهم أجنحة النسر . الذى خلق ليضرب فى كبد السماء مشرقا . . يحدق فى عين الشمس . .

وليس هو بالذى يطير بجناحى دجاجة . . يلتقط بقايا . . مائدة الغرب . . من مزابل الحياة .

للذين طمحت بهم هممهم . . ليسيروا على درب المجرة :

الذى فرشت أرضه بالنجوم . . ليصلوا بقلوبهم إلى الله}

والفرق هائل بين طلاب الدنيا الذين غذوا بالنعيم . . فأفسدهم النعيم . .

بل صاروا به كـالحلفاء فى لهب الحريق .. وبين أناس صلبت فـيهم إرادة من صنع الإيمان .. فكانوا أكبر من هذا الزمان :

يفوضـون أمرهم .. لمن ملك أمرهم . ويـقدر على ضرهم ونفـعهم .. وإذا دهمهم أمر لم يحاولوا دفعه بمعصية الله تعالى .. إذا وقعوا فى محنة .. لم يسألوا إلا الله .. ولم يتوكلوا إلا عليه ولم يفوضوا إلا إليه ..

ومن هؤلاء بطل قصة اليوم : القاضى .. أبو بكر مـحمد بن عبد الباقى ابن محمد البزار البغدادى الأنصارى :

ذكـر الحـافظ بن رجب الحنبلى : أن الشـيخ الصـالح أبا القـاسم الخـراز البغدادى قال : سمعت القـاضى أبا بكر بن البزار يقول : { كنت مجاورا بمكة المكرمـة فأصـابنى يوما من الأيام جـوع شـديد . لم أجد شـيئـا أدفع به عنى الجوع .

فوجدت كيسا مشدودا بشرابة . فأخذته . وجئت به إلى بيتى . فحللته . فوجدت فيه عقـدا من لؤلؤ . لم أر مثله . وخرجت فإذا بشيخ ينادى على . ومعه خرقة فيها خمسمائة دينار وهو يقول : هذا لمن يرد علينا الكيس الذى فيه اللؤلؤ}.

الاختبار الصعب

كان الرجل يحس بالجـوع .. ولكن إحساسـه بالغربة فى مجـتمعـه كان أشد.. لقد تلفت حوله فلم يجد ما يدفع به غائلة الجوع..

وفتح عينه على كثير .. ولكن .. لم ير أحدا ..

لقد انفض السامر من حوله .. لما صار فقيراً:

وكان بنو عمي يولون : مرحبا فلما رأونى مفلسا مات مرحب !!

وإذن فقد كان الامتحان صعبا ..

ومن تدبير الله تعالى أن يتخلق الفرج من الضيق نفسه :

فهـذا هو العقـد الغالى . . رزقا يسـوقه الله إليـه . . وهو على أى حال خيط الأمل يخترق الليل . . ليل الهم الذى أرخى علـيه سدوله . . يتبدى فى حضور صاحب العقد الذى سيضع الله تعالى به حدا لهمه الثقيل المقيم .

الاختيار الأصعب

وإذا كان البلاء قد أناخ بكلكله عـلى الرجل . . فإن أصعب منه أن يحدد موقفه الآن من هذا العقد . . وبعد ما لاح صاحبه فى الأفق .

لكن الرجل - وتحت ضـغط الجوع - قـرر أن يأخذ جـائزته ثم يرد على الرجل عقده . . بعد معركـة فى نفسه بين مروءته التى تأمره أن يرد اللقطة . . بلا عوض . .

وبين حاجته الملحة إلى لقمة الخبز وشربة الماء .

وعلى مضض يتخـذ قراره حين قال : [قلت : أنا محـتاج . وأنا جائع : فآخذ الذهب . فأنتفع به . وأرد عليه الكيس . فقلت له : تعالى إلى .

فتوجهـنا إلى بيت : فأعطانى علامة الكيس . وعلامة الشـرابة . وعلامة اللؤلؤ وعدده والخيط الذى هو مشدود به .

فأخرجته ودفعته إليه . فسلم لى خمسمائة دينار . . فما أخذتها وقلت : يجب على أن أعيده إليك . ولا آخذ له جزاء .

فقـال لى : لابد أن تأخـذ . . وألح على كثـيرا . فلم أقـبل ذلك منه . فتركنى ومضى]

العظماء

بين همومهم .. وهممهم

يقولون :

إن الجمع بـين العلم والعمل . . صـعب . . لكن ذلك العالم الجليـل قد جمع بينهما : وينوب عنا ابن الجوزى فى التعليق على موقف هذا الرجل :[1].

{ من رزق همة عالية . . يعذب بمقدارها . كما قال الشاعر :

وإذا كانت النفوس كبارا ‏ ‏ ‏ ‏ تعبت فى مرادها الأجسام

وقال الآخر :

ولكل جسم فى النّحول بلية ‏ ‏ ‏ ‏ وبلاء جسمى من تفاوت همتى

وبيان هذا :

أن من علت همته طلب العلوم كلها . ولم يقتـصر على بعضها. وطلب من كل علم نهايته

وهذا لا يحتمله البدن . ثم يرى أن المراد العمل . . فيجتهد فى قيام الليل وصيـام النهار. والجمع بين ذلك وبين العلم صـعب. ثم يرى ترك الدنيا . . ويحتاج إلى مـالا بد منه. ويحب الإيثار . . ولا يقدر على البخل. ويتـقاضاه الكرم البذل . . ويمنعه عز النفس عن الكسب من وجوه التبذل . فإن هو جرى على طبعه من الكرم . . احتاج وافتقر . . وتأثر بدنه . وعائلته . . وإن أمسك فطبعه يأبى ذلك . . وفـى الجملة : يحتاج إلى معـاناة . وجمع بين أضداد . فهو أبدا فى نصب لا ينقضى . وتعب لا يفرغ } أ.هـ

وقد واجه الرجل هذا الامتحان الصعب . فاصطبر. . ورفض الجائزة وهى

---

(١) صيد الخاطر - ٥٧٠ وما بعدها .

حقه .. وفى ظروف لا يتحملها بشر وكان أمره على ما قال الشاعر :

إذا قيل : هذا مورد . قلت : قد أرى ولكل نفس الحر تحتمل الظما

وقد تحمل الرجل : الجوع .. والظمأ معا .

الثرى .. والثريا

إذا كان هناك ناس ذممهم واسعة .. ترمح فيها الخيل ..

وإذا كان هناك من يرون الحلال هو : ما حل فى أيديهم ..

فإن عالمنا الجليل .. كان تلك الثريا .. التى صعدت فى السماء .. فوق هذا الثرى الهابط الرخيص..

لكن الثمن كان غاليا : فقد كان عليه أن يصبر .. في زمان قل فيه الأثرياء الأوفياء : {لقد كان العلماء يسكنون إلى عطاء الزملاء الذين لا يمنون :

كان ابن المبارك يبعث إلى الفضل وغيره. وكان الليث بن سعد يتفقد الأكابر: فبعث إلى مالك ألف دينار. وإلى ابن لهيعة ألف دينار. وأعطى منصور بن دينار ألف دينار..

وما زال الزمان على هذا .. إلى أن آل الأمر إلي انمحاق ذلك .

فقلت عطايا السلاطين . وَقَلَّ من يؤثر من الإخوان ..

إلا أنه كان فى ذلك القليل ما يدفع الزمان } [1] .

ولكن .. إذا توقف عطاء الإخوان .. فما توقف عطاء رب الإخوان الذى يرزق المتقى من حيث لا يحتسب وصدق الله العظيم :

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾

{الطلاق : ٢، ٣}.

وهذا هو الذى حدث بالفعل .. لعالمنا موضوع حديثنا .

---

(١) صيد الخاطر / ٤٨٥ .

بركة القرآن

قال القاضى :

[وخرجت من مكة . وركبت البحر فانكسر المركب . وغرق الناس .

وهلكت أموالـهم . وسلمت أنا على قطعة من المركب. فـبقـيت مدة فى البحر . لا أدرى أين أذهب؟ . فـوصلت إلى جزيرة فيها قوم . فـقعدت فى بعض المساجد . فـسمعونى أقرأ . فلم يبق فى تلك الجـزيرة أحد إلا جاء إلى وقال : علمنى القـرآن . فحصل لى مـن أولئك القوم شىء كثـير من المال . وقالوا لى : تحسن الكـتابة ؟ فقلت : نعم .. فقالوا : علـمنا الخط. فجاءوا بأولادهم . فكنت أعلمهم . فحصل لى أيضا من ذلك شىء كثير .]

وتأمل كيف يبلغ اليأس مداه .. ليشع الأمل فى نفس اللحظة التى توشك فيها النفس أن تطير شعاعا..

ثم كيف يستبد الحـزن بالمسلم الذى تتخلى عنه الدنيا .. ثم هو غافل عن ذلك الكنز الثـمين الـذى يخـتزنه فـى قلبـه وهو : القـرآن الكريم ..والذى أثبت.. وفى الوقت المناسب كـيف كـان غوث اللهـيف .. على نحو يؤكـد للحيارى .. أن الخيرة فيما اختاره الله تعالى ..

وإذا كان الشاعر يقول :

يعللنا هذا الزمان بذا الوعد ويخدع عما فى يديه من النقد

إذا كان الزمـان يفعل هـذا .. فإن خداعـه لن يعمـر طويلا .. لأن الله تعالى أرحم بعبده المتوكل عليه أن يرد يديه صفرا ..

وأن من حكمته تـعالى أن يربى عبده حين يضربه بـالحوادث التى يخرج منها ذهبا خالصا:

قال ابن الجوزى : [من العجب إلحاحك فى طلب أغراضك . وكلما زاد

تعويقها زاد إلحاحك وتنسى أنها قد تمتنع لأحد أمرين : إما لمصلحتك : فر بما معجل أذى . وإما لذنوبك : فإنما صاحب الذنوب بعيد من الإجابة .

فنظف طرق الإجابة من أوساخ المعاصى. وانظر فيما تطلبه : هل هو لإصلاح دينك ؟ أو لمجرد هواك ؟ فإن كان للهوى المجرد . . فاعلم أنه من اللطف بك . والرحمة لك . تعويقه . وأنت فى إلحاحك بمثابة الطفل : يطلب ما يؤذيه . . فيمنع . . رأفة به . وإن كان لصلاح دينك : فربما كانت المصلحة تأخيره . . أو كان صلاح الدين بعدمه .

وفى الجملة : تدبير الله تعالى لك خير من تدبيرك.

وقد يمنعك ما تهوى ابتلاء . . ليبلو صبرك . . فأره الصبر الجميل . . تر عن قرب ما يسر. ومتى نظفت طرق الإجابة من أدران الذنوب . . وصبرت على ما يقضيه لك . فكل ما يجرى أصلح لك : عطاء كان أو منعا] [١] .

قضية الرزق

إنها إذن قضية الرزق . . ماديا كان أو معنويا . .

وواجب العبد هو التسليم . . كهذا العالم الذى صابر زمانه . . فكان تفسيرا عمليا لقوله تعالى :

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] . . . لقد قدم الرجل من نفسه تقواها . . فحق له تعالى بالتقوى ثمارها .

أ- أخرجه من البحر سالما.

ب- ثم رزقه من حيث لا يتوقع الرزق .

---

(١) صيد الخاطر/٢٢٦، ٢٢٧.

ومعنى ذلك : أن يشغل العبد نفسه بطاعـة خالقه عزَّ وجلَّ . . مقبلاً بقلبه عليه سبحانه . . غـير معتمد على الأسباب . . مؤملا الخـير فى سبب الأسباب تعالى . .

إن التمساح الهائل الضخم . . يخرج من البحر . . ثم يفتح فاه . .

فيأتى طائر . . صغير . . لينظف أسنانه . . فلا يؤذيه . .

ثم يعود الطائر إلى وكره شبعان ريان !!

من دروس شيخى :

ومما تعيه الذاكرة من دروس شيخى [١] .

يقول الله تعالى : ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك : ١٥].

ومـعنى المـشى فى المناكب : طلب الـرزق بكل أسـبـابه : بـالزراعـة . والصناعة والتجارة. أى : استنفاد الطاقة كلها فى طلبه .

وذلك مفتاح من مفاتيح الحضارة . . يتفرد به الإسلام فى قيادته للحياة . . إلى التى هى أقوم أجل : مفتاح الحضارة: لأنهـا قبل ذلك : مفتاح عزة الأمة وكرامتها .

فالآية الكريمة تعنى : أن رزق العبد محفوظ . . وهو :بين عطائه تعالى . . وسعى العـبد شخـصيا : وإذن : فـلا واسطة . ليس فى قضيـة الرزق عنصر ثالث . . من مدير يستذلك أو مالك يستبد بك .

ومغزى هذا : أنك لا تطلب الرزق من المخلوق . . وإنما تطلبه من الخالق سبحانه . .

ويترتب على ذلك :

---

(١) د. محمد سعاد جلال . . وكالعادة : له الفكرة . . وعلينا التبسيط .

أ- أنك لن تحزن على ما فاتك منه .

ب- ولن تقلق على ما تترقبه .

جـ - وذلك أزكى وأحفظ للكرامة . . لأن القضية أساسا في يد أمينة !

سنة التعويض

قال القاضى :

{ وقالوا لى بعد ذلك : عندنا صبية يـتيمة . ولها شىء من الدنيا نريد أن تتزوج بها . فامتنعت . فقالوا : لابد . وألزمونى . فأجبتهم إلى ذلك. فلما زفوها إلى . مددت عينى أنظر إليها . فوجد العقد بعينه معلقا فى عنقها !!

فما كان لى حـينئذ شغل إلا النظر إليه . فقالوا : يـاشيخ!! كسرت قلب هذه اليتيمة من نظرك إلى هذا العقد . ولم تنظر إليها !

فقصصت عليهم قصة العقد . . فصاحوا بالتهليل والتكبير - حتى بلغ إلى جميع أهل الجزيرة . فقلت : ما بكم ؟!

فقالوا : ذلك الشيخ الذى أخذ منك العـقد . هو أبو هذه الصبية . وكان يقول :

ما وجدت فى الدنيا مسلما إلا هذا الذى رد على هذا العقد . وكان يدعو ويقول : اللهم اجمع بينى وبينه حتى أزوجه بابنتى !

والآن قد حصل }

من دروس الموقف

أ- المجتمع يكرم اليتيم . .

إنه مجتمع الأبرار الذين لا يكتفى . . فقط بكفالة اليتيم . . وإنما يكرمه.

ومن مظاهر التكريم هنا :

أنهم يسعون ويتواصون بتزويجها . .

ولا بأس أن يكون الزوج شـيـخا . . فـفـارق السن . . لا يمنع من زواج توفرت دواعى نجاحه .

ب- يعلمنا الزوج أن هناك شيـئاً أقوى من العزيزة . . حين استـغرق فى سبـحاته وذكـرياته أياما ولياليـى . . متدبرا فى صنع اللـه تعالى . . والذى رد العقد إليه . .

ولم يسقه إليه فى شـرابته كما سلمه لصاحبـه . . وإنما يأتى إليه فى جيد فتاة . . حلال له . .

لقـد رفض مـئات الدنانيـر . . فـجـاءه الله تعـالى بما هو أغلى من ملء الأرض ذهبا .

ج- ولم يكن المجتـمع مجرد . . خـاطبة . . تشرف على العـقد . . ثم ينتهى دورها . .

وإنما كان المجتمع يتـابع . . ويراقب . .حتى يطمئن على الأمانة . . على اليتـيمة التـى كانت وديعة فى يديه .ومـا كان على اليـتيمـة من حرج فى أن تخبر . . أهلها . . بمشكلتها حين أعرض عنها الزوج . .

وكان لابد أن يتدخلوا لمعرفة السر . . وكان هذا العتاب الرقيق . . والذى انتهى بهـذا الدرس البليغ . . فمن ترك شيئـا لله . . عوضه الله تعالـى خيرا منه .

د- وما أكثر الأصدقاء الذين يبكون اليوم ذلك الراحل العزيز . .

ومـا أشد مـا يترجـعون لمشـهد أيتـام زغب الحواصل : لا مـاء . . ولا شجر . . وعند ما يوارونه التراب . . يعود كل واحد إلى دنياه مؤثرا هواه على

كل ما عـداه . . ويصمت الحديث عن الأيتـام . . الذين يضيعـون على موائد اللئام . .

لكن هذا الموقـف العظيم . . تشع من ورائه ظلال وألـوان . . من القـيم الأصيلة النبيلة التى تعمر بها قلوب الأصدقاء الأوفياء . .

الأوفياء . . الذين يبـدأ دورهم الحقيقى بعد رحـيل الصديق أن ينوبوا عنه فى تربية أيتام . . لا يشعرون بالفـراغ من بعد أبيهم . . فى ظل آباء جدد . . ربما كانوا أقل الناس بكاء على أبيهم . .

لقد شغلهم البكاء لأيتامه . . عن البكاء عليه ؟!

آباء صدق

وتأمل كيـف كان صاحب الكيـس يتخيـر لابنته . . التى طال من أجـلها بحثه عن ذلك الذى وجـد الكيس فى الطريق . . ليكون لها زوجا . . لأنه لم يجد فى حياته من اسـتكمل عناصر الإيمان إلا هو . . وكيف حقق الله أمله . وزكى عمله . . تبصـرة وذكرى لكل أب بحث عن الاسم الذائع . . والصيت الذائع . . ثم لا يجنى فى النهاية إلا رجع الصدى .

من آيات الله

قال القاضى :

{ فبقيت معها مدة . ورزقت منها بولدين .

ثم ماتت . فورثت العقد أنا وولداى.

ثم مات الولدان . . فحصل العقد لى . . فبعته بمائة ألف دينار وهذا المال الذى ترونه معى . من بقايا هذا المال} اهـ.

أما بعد :

من فقه ابن الجوزى

فقد قال ابن الجوزى فى صيد الخاطر / ٦٠٣ .

{ ينبغى للعاقل أن يتخير امرأة صالحة . من بيت صالح . يغلب عليها الفقر . لترى ما يأتيها به كثيرا} .

ثم قال : {وليتزوج من يقاربه فى السن . . فأما الشيخ : فإنه إذا تزوج صبية آذاها .

وربما فجرت . أو قتلته . أو طلبت الطلاق . وهو يحبها فيتأذى .

وليتمم نقصه بحسن الأخلاق . وكثرة النفقة }

هكذا قال ابن الجوزى . . قبل أن يرى قصة هذا الزواج الناجح : بين شيخ . . وفتاه . . ولو قد رأى . . لغير رأيه . . الذى حاول أن يجعل منه قاعدة . . ولكن الواقع شاهد بأن لكل قاعدة استثناء .

استدراك

لكن ابن الجوزى كانت له نظرته المستقبلية الصائبة مع هذا . . ولعله كان يقصد بالشيخ . ذلك العجوز الذى يحاول استئناف حياة فات أوانها مع بنت فى عمر أحفاده !

والواقع شاهد بما يقول : فقد وافتنا وسائل الإعلام بنبأ هذا العجوز الذى هرع إلى قسم الشرطة بشكوى ضد زوجته . . والتى اكتشف أنها - وهى فى عصمته - تزوجت بغيره ؟!

لقد تجاوز العجوز السبعين خريفا . . بينما كان عمر الزوجة عشرين ربيعا!! هذا العجوز الذى لولا زوجته الأولى . . ما كان غنيا . . ولولا

غناه.. ما كانت الزوجة الثانية .. لكنه تناسى وضعه وتزوجها .. فكان أن تزوجت من هو فى مثل سنها . لقد ارتكبت البنت خطأ فاحشا .. نعم ..

وكان موقفها نقدا ذاتيا مدمرا .. نعم

لكن الوالد .. الطامع .. والعجوز .. الطاعن .. كلاهما قد ارتكب خطيئة !! وإذ ذهب العجوز بجلها .. فإن الوالد يذهب .. بكلها !!

والمطلوب : محاكمة هذا الوالد الأحمق .

بل والذى لم يترك من الحمق شيئا .. لأنه ذلك الرجل الذى حاول أن يحدث فى الزمان .. ما لا يقبله الزمان

لقد رفض الغنى .. الشاب .. القادر على إسعاد ابنته .. وهرول وراء الغنى .. فكأنه يبحث عما يسعده هو .. لا عما يسعد ابنته ..

فكان رد البنت عنيفا .. مدمدما .. كان ردا على كل من يقدم ابنته لتكون أمة .. يبيعها فى أسواق النخاسة.. فكان على ما قال الشاعر :

قد استرد السبايا كل منهزم لم يبق فى قيده إلا سبايانا !!

الربيع الصامت

إنه الحمق بعينه: أن يؤثر الإنسان حفنة من ذهب .. تذهب بمستقبله ومستقبل أهله معه ..

وماذا يبقى من المال .. بعد ما راحت هيبة الرجال ..

وأذكر هنا ذلك الربيع .. الذى صوره الشعراء من قبل أن يأتى .. مختالا .. ضاحكا ..

إنه يأتى اليوم .. صامتا كئيبا: إن طيوره المغردة .. ماتت بالمبيدات..

فى الوقت الذى بقيت فيه الحشرات حية .. لأنها طورت نفسها مع

المبيدات . . حتى صارت غذاء لها . .

وكانت أمريكا تخسر ثلث محصولهـا بالحشرات . . فاشترت المبيدات . . واشترتها بثلث المحصول . .

ويعنى هذا : أن النتيجـة كانت أشد ضرراً: فقد دفـعت ثمن المبيدات . . ثم خسرت الإنسان . . والحيوان والزرع !! وهكذا نحن فى دنيا الناس :

نشترى المتعة . . ثم فى النهاية نخسر الكرامة

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا دينا يبقى ولا ما نرقع

الفهــــرس

الموضـوع	الصفحة
تمهيد	٣
مسافرون من ظلمة الطبع إلى نور الشرع	٦
مقومات الشخصية المؤمنة	٨
الفائزون بجائزة السباق	١٠
ومن قبله كان أبو بكر	١١
يعيشـون الآخرة ومـا يزالون فى الدنيا	١٣
معنى الزهد فى الدنيا	١٣
كلنا مسافرون	١٦
خصائص السفر إلى الآخرة	١٧
علامات الطريق	١٨
عوائق على الطريق	١٩
وحشة التفرد	١٩
دلائل على الطريق	٢٣
عائدون إلى الله	٢٦
باحث عن الشفاء	٢٨
سلامة إجراءات التحقيق	٢٩
الله معك فهل أنت معه ؟؟	٣١
درس فى الإنصاف	٣٣
درس فى العدل	٣٥
موقف الصحابة	٣٧
من الاهتداء إلى الاقتداء	٣٨
اليائسون البائسون	٤٩
مغزى اليأس	٥١
فكرة السرور فى منهج الإسلام	٥٩
أما بعد فكن سعيداً	٦١
موقف	٧٠
الحب فى الله	٧٤
طبيعة هذا الحب	٧٦
رحلة إلى الماضى	٧٩
العلماء والأمراء معاً على الطريق	٨٠
من جوانب العظمة فى شـخصية ابن المبارك	٨٣
من خداع النفس	٨٤
فى دار العبيد	٨٦
تحرر السادة قبل تحرير العبيد	٨٨
سلامة إجراءات التحقيق	٩٣
برّ التلاميذ	٩٤
وفاء بوفاء	٩٦
القيمة العلمية والقيمة الأخلاقية	٩٧
المصلح الاجتماعى	٩٨
هدايا الحجاج	٩٩
الرحلة المباركة والحج السريع	١٠٣
فريضة الحج آيات وذكريات	١٠٣
البيت الحرام	١٠٣
من آداب الزيارة	١٠٤
لبيك اللهم لبيك	١٠٥
وقفة عرفات	١٠٦
من دروس عرفات	١٠٧
محاولة فاشلة لضرب الوحدة	١٠٨
شبهات المتمردين	١٠٩
والبقاء للأصلح	١٠٩
إبراهيم عليـه الصـلاة والسـلام الأسوة الحسنة	١٠٩

الموضـوع	الصفحة
غريزة الأبوة	١١٠
وظيفة المسلم	١١١
مستوى الطموح	١١٢
العمل الصالح	١١٢
صورة من التعاون على البر	١١٤
ثقب فى البناء الأخلاقى	١١٤
يوم النحر	١١٥
نيل النعم	١١٥
عموم النعمة	١١٦
نعمة الإبل	١١٧
حكمة فى خلق الإبل	١١٨
دروس من عيد الأضحى	١١٩
فن إدارة الأزمات	١٢١
الاستجابة لأمر الله	١٢٢
الألم النبيل	١٢٢
كالمحار	١٢٤
من سمات المتقين	١٢٧
الدنيا طريق إلى الآخرة	١٣٠
أهل الدنيا وأهل الآخرة	١٣١
الخوف من الخالق لا من المخلوق	١٣٤
يحبون لقاء الله	١٣٥
من حكمة الصالحين	١٣٦
الحياة الطيبة	١٣٦
لماذا نكره الحياة؟	١٣٨
معنى الرضا	١٣٨
من سمات المنافقين	١٣٩
واجب المسلم	١٤٠
وهو خادعهم	١٤١
من خصائص المنافقين	١٤١
يخربون بيوتهم بأيديهم	١٤٢
أضعف خلق الله وأذلهم	١٤٣
أولياء المؤمنين	١٤٣
الجزاء الرادع	١٤٤
مهاجرون إلى ربهم	١٤٦
أهمية الاستغفار	١٤٧
الطريق إلى مرضاة الله تعالى	١٤٨
محاسبة النفس	١٤٨
الذنوب عدونا اللدود	١٤٨
منهج فى معاملة الخاطئين	١٥٠
من هدى الرسول	١٥٠
جهود الدعاة	١٥١
من آفات التسرع	١٥٣
واجب الأمراء	١٥٤
قصة زواج ناجح	١٥٧
موقف المسلم	١٥٧
الاختيار الصعب	١٥٨
الاختيار الأصعب	١٥٩
العظماء بين همومهم وهممهم	١٦٠
الثرى والثريا	١٦١
بركة القرآن	١٦٢
قضية الرزق	١٦٣
سنة التعويض	١٦٥
من دروس الموقف	١٦٥
آباء صدق	١٦٧
من آيات الله	١٦٧
من فقه ابن الجوزى	١٦٨
استدراك	١٦٨
الربيع الصامت	١٦٩